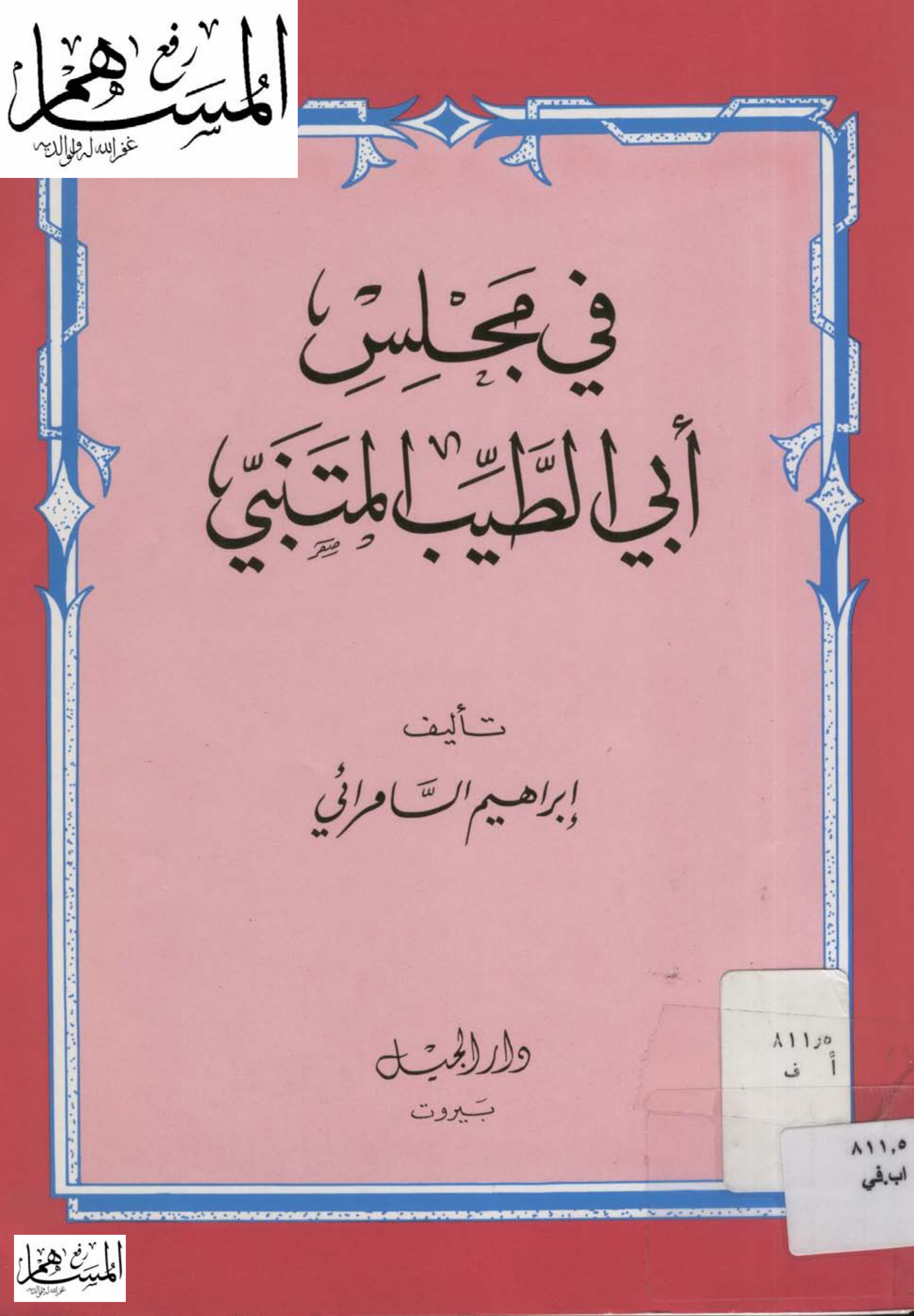


في مجلس أبي الطيب المتنبي

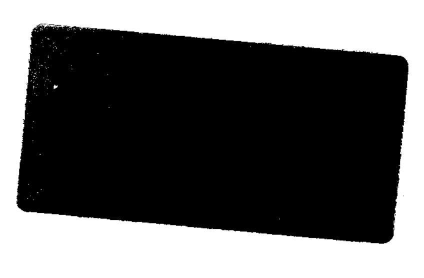
تأليف

إبراهيم السامرائي

دار الجيل
بيروت



في مجلس أبي الطيب المتنبي



تأليف

إبراهيم السامرائي

دار الجيل
بيروت

فِي مَجْلِسِ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

مقدمة

قلت: «في مجلس أبي الطيّب» بل في «صحبته»، وأنا في هذه الصحبة غيري في سنين خلت، فقد صحبته وأنا يافع، وصحبه معي جمهرة من الشداة وطلاب الدرس ومحبي الأدب القديم. وهكذا كان لأبي الطيب صحابة عدد الرمل والحصى والتراب.

إن هذا لا يعني أن الناس على تراخي العصور قد اتخذوا أبا الطيب أحد خلانهم، بل الذي آثروه بمودتهم فقدّموه على غيره ممن عاصره وممن سبقه أو جاء بعده، فقد كان للمتنبي خصومه من الشعراء وغيرهم، وتاريخ الأدب العباسي قد سجل جمهرة الشعراء الذين تصدوا للمتنبي فهجوه. ولا تعجب ان ترى الصاحب بن عباد معادياً له متسقطاً مساوئه، مصنّفاً في هذه المسألة «سفراً».[1]

وتمضي العصور فلا يخف هذا الصدى العجيب الذي ما زال دويّه يصطك الأسماع.

وليس عجباً أن يتفق القوم في أبي الطيب، يقرأه الشيخ ويحفظه ويردّد عيون أشعاره معجباً بها، مستشهداً بما ورد فيها من قول مأثور أدرج في باب الفكر والرأي والحكمة. ويقرأه أدباء العصر في أيامنا الذين ينزعون الى الجديد من الشعر مما يُسَمّى «الشعر الحرّ» أو نحو من هذا، فيعجبون بأدب المتنبي ويطربون، وقد يتكئون على ذرء من شعره يدسونه في صنعتهم الجديدة لا يخفى على أهل العلم من النقاد المهرة.

---

(١) مساوئ شعر المتنبي، مطبوع.



أقول: صحبت أبا الطيب سنين طويلة، ولكني كغيري من الكثيرين الذين غَروا بِكلمة النوابغ فاستظهروا هذا الشائع الكثير مما عُدَّ حكمة أو مثلاً.

ثم عدت الى صاحبي القديم انظر في هذه الصحبة واتبين أصولها التي قامت عليها، ولا أرضى أن أصحبه كما صحبته في سنين خلت، وكما صحبه ويصحبه جمهرة من الدارسين غيري. ورأيت أن اعرض لما يتحدث هو عن نفسه، وأبتعد عما قيل فيه، وما زال يقال: ملأ الدنيا وشغل الناس.

وقد أردت لصحبتي الجديدة ألا تكون خُلّةً قبل ان تسبر أغوار هذه الخلة، وأردت ان أجرّد من نفسي مستفيداً يبتغي ان يعرف غير الذي يردده الناس ويشغلون به.

وها أنا أعود الى شعره باحثاً أتفقد فيه حاجةً تقيم صلة جديدةً ليست صداقة ولا عداوة، ولكنها صلة الإنسان بالإنسان يعاشره فتنعقد بينهما وشيجة رحم مادتها الإنسان. وسأجعل هذه الصلة بيننا قائمة اسأل منها أبا الطيب مستحضراً ما قاله في شعره فألتمس الجواب فيه. وستكون هذه الصلة في مجالس يحضرها ابو الندى يتلو شعر المتنبي، وأنا اسمع فأسأل أبا الطيب فينعقد الحوار. وقد يكون الأمر في غير حوار فيبدي أحدنا ما يراه ويعرضه الى صاحبه بين يَدَي أبي الطيب، فإما أن يوافق ابو الطيب على ما رأينا وإما ان يكون منه موقف خاص.

المجلس الأول

قلت: هل لك أبا الندى أن تسمعنا شيئاً من شعر أبي الطيب في صباه؟

قال ابو الندى: لا عليك، كأني بك تريد أن تقف على «أنا» وهي حاضرة في شعره كأنه لا يفارقها، وهي لا تفارقه.

قال ابو الندى: ألكما أن تسمعا:

أبلَى الهوى أسفاً يومَ النوى بَدَني وفرَّقَ الهجرُ بين الجَفْنِ والوَسَنِ
روحٌ تردَّدُ في مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يَبِن
كَفَى بجسمي نحولاً أنّني رجلٌ لولا مخاطبتي إياك لم تَرَني

قال ابو الندى: لا أدري لِمَ طلبت إليّ أن استحضر هذه الأبيات الثلاثة، وما أراك إلا ضَلَلت الطريق، وهل كان لك أن ترى «أنا» فيها؟ وأين ذلك في هذه الأبيات، التي يقولها شابّ في مقتبل العمر غَزِلاً متشبِّبا؟

قلت: ما كنت أظنك تجهل ما يومىء لمحاً الى الحقيقة، وكنت أظنك تدرك بعضاً من لحن القول. وما أراك إلا قد وقر في سمعك ما يقوله أهل البلاغة وغيرهم من الحاقدين على أبي الطيب الذين عابوا عليه قوله الذي ذهب فيه الى الاحالة:

كفَى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إيَّاكَ لم تَرَني

قال أبو الطيب:

قلتَ حسنا فوصفت هؤلاء وجعلتهم أهل حقدٍ وضغينةٍ. ما أبعدهم عني، وهل كانوا إلا حساداً؟

قلت: عجبت من أمرك أبا الندى، وأنت من أهل العلم، كيف غاب عنك أمر النسيب والتشبيب في شعر أبي الطيب. لقد شُغلتَ، يا أبا الطيب



بـ«أنا» هذه التي أفنيتَ عمرك تسعى في تحقيقها فـأتعبتَ نفسك وزلّت بك قدمُك، فأنّى للمرأة أن تكون متمنّاك، وهل هي في شعرك إلاّ بعض «عرائس الشعر»؟

قال ابو الطيب: لقد ظلمتَني فذهبتَ في مذهبك هذا أما سمعتَ قولي:

لعينيـكِ مـا يلقى الفؤادُ ومـا لَقي ... وللحبِّ مـا لم يبقَ منّي ومـا بَقي
ومـا كنتُ ممّن يـدخـل العشقُ قلبَه ... ولكن من يبصر جـفـونَـكِ يعـشَقِ
وبين الرضى والسخط والقرب والنوى ... مجـالٌ لـدمـع المـقـلة المـترقـرِقِ
....
وأشنبَ معسـول الثنيـات واضـحٍ ... سـتـرتُ فمي عنـه فقبَّـل مفـرقي

قلت:

ما أنتَ وذاك، يا أبا الطيّب، لقد أجدتَ الصنعة حتى قال بعض مَنْ خدعتَهم: إنك عاشق متيَّم.

لا تصرفْنا عما نحن فيه من هذه «الأنا» التي ملكت عليك نفسك.

قال ابو الندى:

وأين تجدها في قصيدة توجّه فيها أبو الطيّب الى سيف الدولة؟

قلت:

ما احسب انك ابا الندى من بعض قوم شغلهم صاحبك أبو الطيب فأعاروه ما ليس زيه حتى قالوا: ملأ الدنيا وشغل الناس.

قلت:

لقد اتكأتَ أبا الطيب، على هذه الديباجة ورأيتَ أن تتغنى مع نفسك، فاستملتَ بغنائك جمهرة القراء ولا أبرّىء أهل الرأي إذ زعموا أنك ابن الملوّح أو جميل، وقليلٌ ما هم.

لقد اتكأت عليها لتصل الى الأمير سيف الدولة ومعه ابن ابي الهيجاء. وأي ضير أن يكون فيها نسيب ووجد وأسى؟

لقد شَغَلَتْك «أنا» وفرَّتْ منك، وسعَيتَ الى اللحاق بها، فما أدركتَ في

سعيك بعضَ هيكلها، وقد آذَتْك فشقيتَ بها.

قال ابو الندى:

لم تجبني الى ما كنت قد سألتك عنه؟

قال أبو الطيب:

ألم أقل لكَ: إنك ظلمتَني، وهل تُرجَى النَصَفة والعدل من ظَلوم يجحَدُ الناسَ ويبخسُهم حقَّهم؟

قلت:

لا عليك. إن «أنا» هذه غاية لم تنقص منه الوسيلة، وتحقيق الغاية يستعان عليه بالوسائل، ومن هذه الوسائل صنعتك وحذقك وفنّك.

ودع عنك مديحك لسيف الدولة، وأريد أن أنبّهك الى ضالَّتك، وهي «أنا» فأُجيب أبا الندى الى ما سألني.

ألم تقل مع قولك في مدحه:

بلغتُ بسيف الدولة النور رتبةً   انَرتُ بها ما بين غربٍ ومشرقِ
إذا شاء أن يلهو بلحيةِ أحمقٍ   أراهْ غُباري ثم قال له الحَقِ

ألم تر أنك الممدوح، وأن قولك فيه فحواشٍ وشَّحتَ بها ما أردتَ أن تصل إليه من أمرك، فاتجهتَ الى «أنا» التي شقيتَ بها؟

قال أبو الندى:

أراك ضربتَ صفحاً عن داليّة أبي الطيب التي لم أتلُ منها إلا المطلع:

أهلاً بدارٍ سباكَ أغيدُها   أبعَدُ ما بانَ عنك خُرَّدُها

قال أبو الطيب:

ألم تُدرك السببَ يا أبا الندى؟

لقد اجتهدَ صاحبك فسَعَى الى ما شقينا به من أمر مُختَرعَاته، فلم يظفر منه بشيء، فأين «أناه» هذه التي رماني بها.

كأني أقول: رَمَتْني بدائها وانسَلَّت.

قلت:

على رِسْلِك، أبا الطيب، ولا تتعجَّل الأمرَ، ولا تذهب في شُبُهـاتِك، وهُنَّ كُثر.

إن داليّتـكَ تلك من شعر الصِّبـا، وأخو الصبـا حَدَث يتغنَّى بـوَجْـده ويتحرَّق ويأسف على ما لا يُدركه، وما لم يجد السبيل إليه، وهو إن بدا لـه فدونه خَرْطُ القَتاد.

وقولك ذاك من أوّل شعرِكَ، ووجدُكَ فيه وأساكَ على مَن لم تَرَه ولم تعرف من أمره، هو وجدُكَ وأساكَ مع نفسك، تصل بهما الى الممدوح قائلاً: أتيتُكَ بعد أن ضقتُ ذرعاً ولقيتُ من شجوني ما لم يلقَه الناس.

وممدوحك هذا، وأنت غلام حَدَث، كبير المنزلة رَحْبُ الجنـاب، فهل لغلام حَدَث ان يتجاوز حدّه فيتحدَّثَ بصريح الكلام عن نفسه، وهو بحضرة محمد بن عبيدالله العلوي؟

قال أبو الطيب:

ما أبرعَكَ! لقد أتيتَ فأحسنتَ الإتْية، ولزمتَ الطريق فسلكتَ الجَدَد، وأمِنْتَ العثار وكأني أقول: أخذ القوسَ باريها.

قال ابو الندى:

عجبتُ من أن يُثني عليك أبو الطيب، ولم تضرب فيما ذهبت إليه بسَهْم، فأين «أنا» أبي الطيب في تلك الداليّة التي حفِيَت مخلصة بالنسيب تتوسَّلُ به الى الممدوح؟

قلت:

كأني قد اخطأتُ فيك الظنّ أبا الندى، وما كنت أحسب أنك من ساقة أهل الأدب تجوز عندك كلّ زِغْنِفة.

لقد فاتك، أبا الندى، أنَّ صاحبنا أبا الطيب ليّن العود فأنّى له أن يشمخ مع ممدوحه العلويّ؟



ولو توسعت في تلاوتك لعرفت أن جلّ ما قاله في صباه قرزَمةٌ يلوكها ويُجري بها لسانه، وما أظنك تجهل ما قال أحدهم في عمر بن أبي ربيعة: ما زال هذا القرشيّ يهذي حتى قال الشعر.

أنسيتَ ما تلوتَه أمسِ من شعره في صباه في مقطوعته التي مطلعها:

وشادنٍ روحُ من يهواه في يده   سيف الصدود على أعلَى مُقَلَّدِهِ

أنسيتَ سائر المقطوعة وكلها بضاعة مزجاة لا ترضاها من ناظم قلَّت أدواته فتعثّر في سيره؟

وقد ضنَّ صُنّاع ديوان أبي الطيب بذكر الممدوح الذي قال فيه صاحبنا أبو الطيب:

لم أعرف الخير إلاّ مذ عرفتُ فتًى   لم يولَد الجودُ إلا عند مولدِهِ

فهل لكَ أن تجد في هذه القرزمة تحقيق «أنا»، في غير مكانها؟

قال أبو الطيب:

لست سعيداً بمجلسي هذا، وكثير أن تأذن لامرئٍ يُجالسك فلا تظفر منه بالحُسنَى، ولو جاز لي أن أهجوك لكان لي ذلك، ولكنك ضيفي، والضيف صاحب الدار.

قلت:

لا عليك، لقد هجوت غيري ممن أكرموك فقدّموك، ولكنك جَحود كنَود. ولا يسلم منك من دعوتَه «ضيفاً» ألم تقل على وجه من التشبيه:

ضيفٌ ألَمَّ برأسي غير محتشِمِ   السيفُ أحسنُ فعلاً منه باللِّمَمِ

قال أبو الندى:

ما كان لي أن أصرفك عن دأبك، وعما أنتَ فيه ممتَحَن بـ«أنا» هذه التي لزمتْ أبا الطيب لزوم ظله.

قلت:

هل لك أن تُسمع أبا الطيب خمسة أبياته اللاميّة مما قيل إنه قالها في صباه؟:



فأنشد أبو الندى:

مُحبّي قيـامي مـا لـذلكُمُ النَّصْـلِ ... بـريئاً من الجَـرْحَى سليماً من القتـلِ
أرَى من فِـرِنْدي قـطعـةً من فِـرِنْـدِهِ ... وجَودةُ ضربِ الهامِ في جَودةِ الصَّقْلِ
وخُضرة ثوبِ العيش في الخضرة التي ... أَرَتْكَ احمرارَ الموت في مَدْرَج النمـلِ
أمِطْ عنـك تشبيـهي بمـا وكـأنَّـه ... فـما أَحَـدٌ فـوقي ولا أَحَـدٌ مِثْـلي
وذَرْني وإيّـاهُ وطِـرْفي وذابـلي ... نكُنْ واحداً يلقَى الوَرَى وانظُرَنْ فِعلي

لا فُضَّ فوك، أبا الندى، لقد جئتَنا بما نحتاج إليه، وسنرى ما يقوله أبو الطيب.

لقد سمعنا النصل والقتل والجرحَى والقتلَى، وهـذه أدوات أبي الطيب يستحضرها وتطيب بها نفسُه وهيِ هي وأكثر منها في قصائده الأخرى. ولكني وددت أن أقفَ على قوله:

فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

ولن أقف في هذا على «أنا» وحدها، بل اتجاوزها الى «الأنا» الخاصة التي لا نظير لها بين بني الخلق.

قال أبو الطيب:

تريد أن تقول: إنك ادَّعيت «النبوة»، وكأنك قد صـدَّقتَ فيّ حُسّادي وأعدائي وهم كُثْر.

قلت:

ما كان لي والله أن أُصدِّق فيك الحسّاد الشانئين، ولم أسمع من أحدهم قوله فيك. وقد تألّبوا عليك فما استطاعوا وبقيتَ انت «مالئَ الدنيـا وشاغـل الناس».

ولكني أتوجّه لصاحبنا أبي النـدى الذي شَغَلَتْـه محاورتنـا عن التلاوة، وأطلب إليه أن يتلو الدالية «الخفيفة» الغانية بدلّها وحسنها. . .



فأنشد أبو الندى:

كم قتيلٍ كما قُتِلتُ شهيدِ ... لبياض الطُّلَى ووَرْدِ الخدودِ
وعيونِ المَهَا ولا كعيونٍ ... فتكَتْ بالمتيَّمِ المعمودِ
....

قلت:

ما أغنانا عن هذا النسيب نظفر به لدى كل حَدَث يتغزل في صباه غزلاً تغلب فيه الأحلام على دنيا الناس، وكنت أطمع منك أبا الندى أن تتلو قول أبي الطيب:

عشْ عزيزاً أو مُتْ وأنتَ كريمٌ ... بين طعنِ القَنا وخَفْقِ البنودِ
فرؤوسُ الرماحِ أذهَبُ للغَيْـ ... ـظِ وأشفَى لغلٍّ صَدْرِ الحقودِ

قال أبو الطيب:

وأيُّ شيء في هذا، وهو حماسة وفخر، لهج بها كل لسان، وسارت سير الأمثال...

قلت:

هو ذاك، وأشهد أن لك الكثير مما بات على كل لسان، أصبتَ فيه، وأدركتَ القصد بلفظ رشيق ما كان لغيرك شيء منه.

ولكني كنت أود أن يكون فيما تلاه أبو الندى قولك:

لا بقومي شَرُفتُ بل شَرُفوا بي ... وبحسبي فَخَرتُ لا بجدودي

ألا ترى معي، أبا الطيب، انك تجاوزت الحدّ وجعلت الشرف لك وحدك، وأن قومك عيال عليك، وأن آباءك وأجدادك ليغرفون من بحرك ويقيمون مجدهم من مجدك. وكأنّ أبا الندى قد وقف على «أنا» في هذه القصيدة، وأحسَّ انك قد تجاوزت فيها الحدود، فاحتشم في حضرتك فطواها وأبَى أن يتلوها.

لقد شقيتَ، أبا الطيب، بهذه «الأنا» فأقضَّت مضجعك، وأورَدَتْكَ شرَّ الموارد، ألم تقل في رثاء جدّتك شيئاً من هذا، وهو قولك:

ولو لم تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ ... لكانَ أباكِ الضَّخْمَ كونُكَ لي أُمّا

تعالى الله، ما أجحدك، وما أقساك.

إنك في موطن الرثاء، وكان عليك ان تكتفي ببكائك وأن تلتمس لحنينك وبكائك لغة صالحة تذوب فيها «أنا» بمقام المرثيّ، فهل فعلت هذا؟

قال أبو الندى:

على رسلك شيخي وسيدي، لقد أكثرت في شاعرنا المفلق، شاعر كل العصور فأوسعتَه لوماً وجئتَ على ما لم يكن له فيه خير، وأغضيت عن محاسن جمة تضمَّنتها أعلاقه النفيسة.

ولِمَ لم تذكر فخره في الدالية «الخفيفة» في قوله:

وبهم فَخْـرُ كـلِّ مَن نَـطَقَ الضـا ... دَ وعَـوْذ الجاني وغَـوثُ الـطريـدِ

قلت:

لك ان تقول ذلك، وكأني بك، أبا الندى، قد عُدتَ الى ما كان من علمك وفطنتك.

لقد استحضرتَ فخره بقومه، وأنهم كانوا فخر كل العرب «يعـوذ بهم الجاني» و«يُغاث الطريد».

قال أبو الطيب:

أتستكثر عليّ أن أخلص الى نفسي فأفصح عن نوازع الخير فيها فأقول بعد أن قلت في قومي ما أنشدتَه قبل قليل:

أنــا تِـرْبُ الـنـدى ورَبُّ القــوافي ... وسِـمــامُ العــدَى وغـيظُ الحَـســودِ

قلت:

لا استكثر ذلك، ولكني أقول: غلبت عليك نفسك فأنت أسير لها، لقد قيَّدتك بل استعبدتْكَ فانطلقتَ تتحدث عنها حديث من دعـا غيره الى ذمّـه لتكبّره، فكثر العدوُّ وازدحم الحسّاد.

غير أنك طويتَ عن عمد أن تتلو معي قولك في آخر بيت من داليّتك هذه:

أنــا في أُمــة تَـداركـهــا الله ... غــريـبٌ كـصـالـحٍ في ثَـمـودِ



لا والله، لم تكن القافية قد قادتك الى «ثمود» فيبرز أمامك نبيّ الله صالح، ولكنها نفس سدَّت عليك الأقطار فأبعدَتْك عن دنيا الناس فكنتَ على ما خيّلت نفسُك أحد المصطفينَ الأخيار من الأصفياء الأنبياء.

ثم ألم تقل في هذه القصيدة أيضاً:

ما مُقامي بأرض نخلةَ إلاّ كمقام المسيح بين اليهود

أتكون «القافية» قد جاءت بـ«اليهود» وإذا كان هذا أكان عليك أن تكون في البيت كالمسيح بين اليهود؟

تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً!

قال أبو الطيب:

كأنك رضيتَ لنفسك أن تكون من الشَنَأة الحاقدين لمشايعتك لهم فيما تقوّلوا وأرجفوا. لم أقل إني نبيٌّ ولم أشر الى ادِّعاء بذلك، ولم أكن متنبئاً. معاذ الله أن أكون من الكاذبين.

قال أبو الندى:

وكأني استشعر الصدق والاخلاص في قولة أبي محسَّد، ما أغناه عن ذلك. لقد ترك جمهرة المتشاعرين وراءه وراح مجلّياً لا يشق له غبار.

قلت:

ليس لك، أبا الندى، أن تكون من قوم مَرَدوا على النفاق والكذب، ألم تتل عليَّ في مجلس كهذا ما ردّده جمع من أهل الأدب خاضوا في أبي الطيب فوقفوا على قوله:

أيَّ محلٍّ أرتقي أيَّ عظيم أتقي

وكلَّ ما قد خَلَقَ اللهُ وما لم يَخْلُقِ

مُحتَقَرٌ في همّتي كشَعْرةٍ في مَفرِقي

ألم يشهد الجمع على أن هذا قولٌ صاحبُه مُتَّهم في عقله، بَلْهَ دينه، ودَعْ عنك الكفر الصريح، وانظر في رجل لا يتّقي أي عظيم فكيف عاش، وكيف



يحيا، وكيف سيكون في دنياه وآخرته؟

قال أبو الطيب:

ليس لي أن أنكر هذا الذي سمعت، ولكن ذاك من عبث الصبا، ألم تسمعوا قول القائل:

ان الشبابَ مطيّةُ الجهلِ

وكيف لي أن أتجاوز حدّي فأدّعي ما لا طاقة لي به، ألم تسمع ما قلته في رثاء أمّ سيف الدولة:

صـلاة اللهِ خـالِـقـنـا حَـنـوطٌ   عـلى الـوجـهِ المكفَّن بـالجمـالِ

قلت:

لكأني بصاحبي، أبي الندى، قد سئم مجلسنا وأتعبته التلاوة.

قال أبو الندى:

ما كان لي أن أمَلَّ مجلسك وفيه شاعر العربية، ثم إني غرس يديك وربيب فضلك، ولم أغترف إلا من بحرك، ولم أُفد إلا من رأيك، فماذا تريد منّي أن أتلوه؟

قلت:

هل لك ان تقرأ اللاميّة من الكامل في مدح بدر بن عمّار وقد خرج الى الأسد، والخبر معروف مشهور؟

قال ابو الندى:

دونك ما طلبت:

في الخـدّ إن عَـزَمَ الخـليط رحيـلا   مـطر تـزيـد بـه الخـدود محـولا

الى ان يقول:

أمُعفِّـرَ الليثِ الهِـزَبْـرِ بسَـوطِـهِ   لِمَن ادَّخَـرْتَ الصـارمَ المـصقـولا

. . . .

. . . .

كنت أود ان تصل الى قوله في بدر بن عمّار:

لو كانَ علمُك بالإله مقسَّماً في الناس ما بَعَثَ الإلهُ رسولا
لو كان لفظُك فيهُمُ ما أنزَلَ الـ فُرقانَ والتوراةَ والانجيلا

ولكن غلب عليك الأمر وسئمت التلاوة.

ولا أدري ماذا يقول صاحب مجلسنا شاعرنا الكبير، أليس في قوله من الاغراق والمبالغة التي ليس لها أن تكون من دنيا الواقع؟ هو أنه شيء من الكفر والتجاوز على خلق الله للناس.

وماذا يقول في بيت له من قصيدة قالها في صباه يمدح ابا المنتصر شجاع ابن محمد بن أوس... الأزديّ التي مطلعها:

أرَقٌ على أرَقٍ ومثليَ يأرَقُ وجوًى يفيضُ وعَبْرةٌ تترَقْرَقُ

والبيت هو قوله:

لم يخلُق الرحمن مثل محمد أحداً وظنّي أنّه لا يَخلُقُ

قال أبو الطيب:

وهل في هذا كله شيء يُقوّي به الخصوم أراجيفهم، ويدّعُون فيَّ أني قد تطاولت على الله؟

قال أبو الندى:

وهل لشيخي أن أسمعه قول أبي محسَّد في قصيدة مدح بها أبا عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد الخطيب الخصيبي صاحب القضاء في انطاكية، التي مطلعها:

أفاضل الناس أغراض لدى الزَمَنِ يَخلو من الهَمِّ اغلاهم من الفِطَنِ

والبيت هو قوله:

وإنما نحن في جيلٍ سَواسيةٍ شرٌ على الحرِّ من سُقْمٍ على بَدَنِ

قلت:

كأنك ترمي الى أن تنتصر لأبي محسَّد. خابَ سَعيُك، فهل كان في أبي

محسَّد حاجة الى نصرتك، وعنده من اللآلئ الغوالي ما يقمنَ شاهداً وأيّ شاهد.

غير أني وددت أن أشير الى هذه الذاتِ العلّية التي شَقِيَتْ بـ «أنا»، وقلَّ من لم يشق بـ «أنا»، ولكن الناس يختلفون في القدْر.

كأننا قد أطلنا مقامنا في مجلسك يا أبا الطيب، فهل لنا أن نخفف عنك وننصرف لنعود اليك غداً بزاد جديد؟

المجلس الثاني

قال أبو الندى:

الى أين أنت غادٍ في مسيرتك؟

قلت: أنسيت ما اتفقنا عليه وواعدنا أبا محسِّد الليلة الماضية وإني لألمح الدار عن بُعد، وكأني بها هذه التي أصبحت منا على قرب.

قال أبو الندى:

كأنك أكثرتَ القول في شعر صاحبنا وخُضتَ فيه، ألنا أن نضرب صفحاً عمّا كان بيننا؟

قلت:

كأنك أبا الندى لائم عاتب، وما أرضى لنفسي ان أكون ممن يبتئس منهم ابو محسِّد. وان أهل العلم عرفوا عنايتي بأدبه وإكباري لمنزلته.

ألم تذكر أني حدثتك عنه وقلت فيما قلت أين ابو تمام والبحتري وابن الرومي من أبي الطيب. كان لكل من هؤلاء شعر كثير ولكننا لا نعرف منه إلا القليل نجتزئ به عن كثيرهم. ألا ترى ابن الرومي صاحب المطوّلات التي نيّف في كثير منها على الثلاث مئة أو الأربع مئة، ولكنها غثاء أحوى. وليس لك من شعره إلا رثاؤه لبنيه وقوله في البصرة واجتياح الزنج لها، وكلمات أخرى ضاعت في بحر ديوانه الصخّاب. وليس ابو تمام ولا البحتري بأسعد حالاً، فأنت لا تستظهر من كل منهما إلا أشتاتاً يسيرة، روّج لها أهل صناعة الأدب. أما سمعت ان أبا تمام في «حماسته» أشعر منه في شعره؟ واني ليحزنني أن يبتئس مني أبو الطيب الشاعر الكبير الذي نسي به الناس جمهرة الشعراء الفحول.

قال أبو الندى:

هذه هي الدار، فليكن لنا فيها مرور على كَلِم أبي الطيب النوابغ.

قلت:

لا شيء لي من ذلك، ولكني وددت أن يكون مجلسنا تتمة ما بدأناه في المجلس الأول. حتى إذا دخلنا واطمأن بنا المجلس، وأقبل علينا ابو محمَّد منطلق الأسارير بدأناه بالسلام فردَّ بأحسن منه.

وقلت لصاحبي أبي الندى: هل لك أن تتلو من شعر أبي محمَّد في المديح؟

ولكني استدركت فطلبت إليه أن يذكر لنا ممدوحيه فقد شُغِلَ بهم أيام الطلَب.

قال أبو الندى:

وما تريد أن تقول في نفر منهم لا تعرف من حالهم الكثير. فليس عندك شيء عن محمد بن عبيدالله العلوي المشطّب، ولم يكن سعيد بن عبدالله الكلابي المنبجي أسعد حظاً لديك، ومَن يكون عبيدالله بن خلكان، وابو المنتصر شجاع ابن محمد المنبجي الرضي الأزدي، وعلي بن أحمد الطائي، ومحمد بن زريق الطرسوسي، وعبدالله بن يحيى البحتري، ومساور بن محمد الرومي، ومحمد بن اسحاق التنوخي، والحسن بن اسحاق التنوخي، والحسين بن اسحاق التنوخي، وعلي بن ابراهيم التنوخي، والمغيث بن علي بن بشر العجلي، وابو الفرج أحمد بن الحسين القاضي المالكي، وعلي بن منصور الحاجب، وعبد الواحد بن العباس ابن أبي الاصبع الكاتب، وعبد الرحمن بن المبارك الانطاكي، وابو علي هارون ابن عبد العزيز الأدراجي الكاتب، وابو الحسن بدر ابن عمار، وابو الحسين علي بن أحمد المرّي الخراساني بطبريّة وأبو عبدالله محمد ابن عبدالله الخطيب الخصيبي بانطاكية، والقاضي ابو الفضل احمد بن عبدالله الانطاكي، وابو سهل سعيد بن عبيدالله بن الحسن الانطاكي، وأبو أيوب احمد ابن المبارك، وعلي بن احمد بن عامر الانطاكي، وعلي بن محمد بن سيّار بن مكرّم التميمي، وابو بكر علي بن صالح الروذباري، والحسين بن علي الهمذاني، والامير أبو محمد الحسن بن عبيدالله بن طغج بالرملة، وابو القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي، ودلّير بن لَشْكَرْوَز على أن بينهم طائفة وهم: سيف الدولة ابو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان العدويّ، وناصر



الدولة أخو سيف الدولة، وكافور الإخشيدي، وابو شجاع فاتك، وأبو العشائر الحسن بن علي. . . بن حمدان العدويّ وابن العميد محمد بن الحسين وزير ركن الدولة، وعضو الدولة البويهي بشيراز.

ولولا أن كان في عدة هؤلاء سيف الدولة وبدر بن عمار وكافور وابن العميد لكان جل ممدوحي أبي الطيب هيّان بن بيّان.

قال أبو الطيب:

ليس لك، أبا الندى، أن تقول هذا، فقد كان جلُّ هؤلاء قوماً أولي بأسٍ ورأي وسماح، وإن لم يكونوا ذوي ألقاب وأصحاب رئاسات وإمارات.

قلت:

ولكني أرى أن جلّهم من أهل الشام ولولا ابن العميد وعضد الدولة وركن الدولة، لقلت: ان أبا الطيب شاعر شاميّ:

ولقد أصاب الذي جعلك يا أبا الطيب شامياً، فقد صرفت الى الشاميين وعلى رأسهم سيف الدولة طائفة جليلةً من شعرك.

ولا أدري كيف صنع الثعالبي في «اليتيمة» وكيف نظر الى شعرك في «شاميته» والى مرباك ومدرجك في الكوفة!

وقد يعجب المرء ألا يجد العراق في شعرك فلن تقرأ فيه بغداد ولن تجد للبصرة أثراً، ولن تقف فيه على أمير أو خليفة عباسي، ولولا شذرات ورد فيها اسم الكوفة غير مقصود إليه لكانت الكوفة مما طوي ونسي في شعرك. ولا أدري كيف قلت:

أمنسيَّ السكونَ وحضرَموتا ووالدتي وكندةَ والسَبيعا

ولقد أحسنتَ في قولك:

وكلُّ امرئٍ يولي الجميل محبَّبٌ وكل مكانٍ يُنبت العزَّ طيّبُ

قال أبو الطيب:

ما تفتأ تلمِزُني بحلو عبارتك، وقد سطع شعري بالفرائد اللآلئ مما يزين به المتأدب كلامه، ألم يبلغك ما كان للصاحب بن عباد الذي توفيت أخته



فوردت إليه الرسائل تترى تُعزّيه وترثي أخته فكان جلها يبدأ بقولي في رثاء أخت سيف الدولة:

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ فزَعتُ فيه بآمالي الى الكذِبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقُه أمَلاً شرِقت بالدمع حتى كاد يشرَقُ بي

فزاد حزنه لما كان من بغضه لي، وقد ساءه أن أكون الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس.

أما علمت أنه دفع المتشاعرين والمتأدبين الى أن يصنفوا في قدحي والنيل من أدبي وفني، وأنا القائل:

أرَى المتشاعرينَ غَروا بذمّي ومن ذا يحمَدُ الداءَ العُضالا

وقولي:

أفي كل يومٍ تحت ضِبْني شويعر ضعيفٌ يُقاويني قصيرٌ يُطاوِلُ

قال أبو الندى:

إذا كان لنا أن نبدأ الكلام في شعر المديح فإني أقول إنه مادة ديوان أبي محسَّد، وان من ممدوحيه وهم سيف الدولة وبدر بن عمار وكافور قد كان لهم من الديوان نصيب كبير ولا سيما سيف الدولة الذي اختص به ابو الطيب وصحبه في سلمه وحربه، صحبه في رحلاته الى بلاد الروم وحضر المعارك ووصفها في قصائده. وما كان أبو الطيب بدعاً بين الشعراء في هذا. لقد شغل باب المديح في ديوان ابن الرومي ما يفرَّق في عدّة دواوين، كما كان الأمر نفسه في شعر أبي تمام والبحتري، وغير هؤلاء من شعراء العربية.

قال أبو الطيب:

لم تبلغ، أبا الندى، الغاية فيما قلت، وكان عليك ألا ترى ان المديح في شعر العرب اشتمل على اغراض أخرى ما خلا المديح. وإني لأجعل الفخر والحماسة من حواشي المديح، وان الرثاء ضرب من المديح وليس لك أن تحبسه على الجفن القريح والفؤاد الجريح.

وأنّى لي ان ابسط النظر في الحياة والناس في غير شعر المديح...؟ وما



لكم دعوتم المادح متكسّباً مستجدياً، وهلا كنتم أجواداً أسماحاً مع الشاعر تندَى منه كلمة خير في سَمْحٍ يستحق أن يُنَوِّه به ويشاد بمروءته؟

ما أجحدنا بني البشر يكيد بعضنا لبعض، وهل من عجب إنّ الإنسان لربّه لكنود، وهل ساءني إلا الحسّاد!

ثم ما لهؤلاء الناس أنكروا عليّ تشبيبي ونسيبي، وصرفوه الى الصنعة يتأتّى فيه للشاعر أن يصل الى مديح أو نحوه؟

ليس ذاك حقيقة في الأمر، فما أبعدكم عن الصواب.

قلت:

لقد وجدتما سعة فأفضتما في الحديث فهلا تركتما لي ما أود أن أجول فيه كما جلتم، ولنعد الى شعرك فنلتمس أبا الندى أن يتلو ما يختاره من المديح. وليكن في اختياره اختيار للممدوحين فيكون فيهم المغمور والمشهور.

قال أبو الندى:

كأني بك أبا الطيب قد وزَّعت الخلال الحميدة على ممدوحيك فأفرغت في كل منهم صفة يقتضيها فن المديح، وجعلت جملة من هذه الصفات مِلكاً يأخذ كل منهم منه بنصيب.

إنهم شجعان مساميح، مساعير حرب، أهل رأي وسداد، يخفّون عند الفَزَع ويتقدمون الى الرَّوع، وتكاد لا تفقد صفة من هذه في قصائدك كافة.

قال أبو الطيب:

أتريد أن تقول: إنك صاحب صنعة؟ وملاك الصنعة أن تَهَبَ ممدوحك ما يملك وما لا يملك.

قلت:

لا تبتئس، أبا محمّد، وما كان أبو الندى ليخوضَ في شعرك، وربما خانه القول فذهب به الى غير ما أراد.

وسأعود الى ما تلاه من القصيدة الأولى التي زعم صنّاع دواوينك الى أنك



قلتها في المكتب تمدح رجلاً واردت أن تستكشفه عن مذهبه فقلتَ:

كُفّي! أراني ويكِ لومَكِ ألوَما ... همٌّ أقام على فؤاد أنْجُمَا

وخيال جسم لم يُخَلِّ له الهوى ... لحماً فينحلُه السقامُ ولا دما

وخُفوقُ قلبٍ لو رأيت لهيبَه ... يا جَنَّتي لظننتُ فيكِ جهنَّما

الى قولك:

غصن على نَقَويْ فلاةٍ نابتٌ ... شَمسُ النهار تُقِلُّ ليلاً مظلماً

قال أبو الندى:

لا أدري ما أقول في هذه «المقدمة»، ولا أعلم كيف سيلفظها ليصل الى الممدوح...

قال أبو الطيب:

لقد شغلنا بكم أيّها النقاد، وانتم تعلمون اني لست كغيري من ساقة النظّامين، ولكن أثق بأهل العلم منكم، ألم تعلموا أني ارتَضَيتُ صنعة ابي الفتح عثمان ابن جني في «النسر».

قلت:

لا يبتئس أبو محسَّد بقول ابي الندى في أبيات النسيب التي ابتدأت بها القصيدة. غير أني أحسّ أنها تمهيد ييسر للقارئ أن يدخل في رحاب شعرك.

ولكني أقول: مَن هذا الممدوح الذي اكتفى صُنّاع الديوان فقالوا: «رجل».

وكأنهم أخطأوا لأنك قلت في القصيدة:

يا ايها المَلَكُ المصفّى جوهراً ... من ذاتِ ذي المَلَكوتِ أسمَى من سَمَا

نور تظاهَرَ فيك لاهوتيّه ... فتكاد تعلَمُ علم ما لن يُعلَما

ويهُمّ فيك اذا نطقْتَ فصاحةً ... من كلّ عضوٍ منكَ أن يتكلّما

أنا مبصِرٌ وأظنُّ أنّي نائم ... من كان يحلُمُ بالإله فأحلُما

كَبُرَ العيانُ عليَّ حتى إنّه ... صار اليقين من العيان توهُّماً

يا مَن لجود يَدَيْهِ في أمواله ... نِقَم، تعود على اليتامَى أنعُما

حتى يقول الناسُ ماذا عاقلاً ... ويقول بيت المال ماذا مُسلِما

لا أدري لِمَ أغفل أهل الدرس هذه القصيدة ولم يتبينوا هـذا الممدوح العلويّ النسب، وكأنك أبا الطيب تمتّ الى هـذا النسب، وترى رأيَ أهـل طائفتك في الامام «المصفّى جوهراً» من ذات الله ذي الملكوت الذي سما على كلّ من سما. وهو كيت كيت مما يعرف من الأبيات، كأنه غير سائر الناس.

ولم تنس ان تقول: إنه جواد يجود بأمواله على اليتامى، وأنه لم يـترك مستحقاً للمال إلاّ اعطاه.

أقول: كأن الأبيات التي تقدَّمت في النسيب كانت «مقدمة» ملغاة، ولا حاجة أن نطيل الكلام لنصل الى هذه الفوائد.

قال أبو الندى:

لنبدأ نمط المديح الذي كثرت نظائره في شعر أبي الطيب فنفيد من كوننا في مجلسه نتلو شعره ونسمعه إياه. وكأني به يقول لو كان هذا كذا لكان أحسن، ولو كان ذلك كذا لكان له غير ما كان في الصورة الأخيرة.

أما سمعت قول أبي الطيب في سعيد بن عبدالله بن الحسين الكلابي المنبجي.

فيقول:

أحيَا وأيسَرُ ما قاسَيْتُ ما قَتَلا والبين جارَ على ضَعْفي وما عَدَلا

. . . .

لولا مفارقة الأحباب ما وَجَدَت لها المنايا الى أرواحنا سُبُلا

بما بجفنَيكِ من سِحْرٍ صِلي دَنِفاً يهوَى الحياة وإمّا إنْ صَدَدْتِ فلا

إلى أن يقول:

علَّ الاميرَ يرى ذلّي فيشفَعَ لي الى التي تركَتْني في الهَوَى مَثَلا

أيقَنتُ أن سعيداً طالبٌ بدَمي لما بصرت به بالرُمحِ مُعتقِلا

قَيْلٌ بمَنْبِجَ مثواه ونائلُه في الأفق يسأل عمّن غيرَه سألا

. . . .

ترابه في «كلابٍ» كُحل أعينها وسيفُه في «جَنابٍ» يسبق العَذَلا

. . . .

هو الأمير الذي بادت «تميم» به   قِدما وساق إليها حَيْنُها الأَجَلا
لما رأوه وخيل النصر مقبلةٌ   والحربُ غيرُ عَوانٍ أسلموا الحِلَلا
وضاقت الارض حتى كانَ هاربُهم   اذا رأى غير شيء ظنّه رجلا
فبعدَه والى ذا اليوم لو ركضَتْ   بالخيل في لَهَوات الطفل ما سَعَلا

أشهد ان النسيب في اول هذه القطعة صنعة شاعر أيّ شاعر، وهو يفرض عليّ أن صاحبه محبٌّ كلف، وإن لم يُتَح له في مقام هذه القصيدة ان يتوجه الى حبيبة يعرفها الناس. وهو صادق اللهجة في هذا التقمص للمحب الملتاع.

قلت:

كأنك أردت أن تعقد مودة جديدة بينك وبين أبي الطيب، أو أنك خشيتَ أن يكون قد كبر في نفسه ما قلته فيه.

ولا أريد أن اترك القصيدة قبل ان أقول لأبي الطيب: أترى قد أصبتَ الإحسان في «تخلصك»، وهل كان ذلك من باب ما دعاه أهل البديع بـ «حسن التخلص» وهو قولك:

عَلَّ الأميرَ يَرَى ذليّ فيشفع لي

ما زدت على أن جعلت الأمير الممدوح بعض خاصتك تسيّره في حاجتك التي ما أظن انك تجهل منزلتها.

قال أبو الطيب:

ليس لي أن أردّ عليك فقد أصبتَ، ولكنكم معشر النقاد لا تعانون ما يعانيه ربُّ قواف تأتيه تارة طيعة مواتية إذا هي تتنكر له فتعود شُمُساً لا يُكفكَف جماحها.

ولو كنت ممن جرَّب هذا العناء لأقررت لي، وما أظن انك تجهل قول همّام بن غالب الفرزدق الشاعر في القافية التي عانى من وضعها في موضعها ألماً أخف منه قلع ضرس.



ثم يدخل الأمير الممدوح ميدان المعركة فتبيد «تميم» وتضيق الأرض عن الهارب ويترك من لاقاهم جَزَراً، وأمّا من لم يجده منهم فقد مات وجلاً.

فقـد تـركتَ الأُلى لاقيتَـهم جَـزَراً وقـد قَتَلتَ الأُلى لم تـلقَهـم وجـلا

هذه جملة صالحة من مادة القصيدة في نسيبها ومدحها ووصفها، فأين أبو محمَّد وما كان لك منها:

قال أبو الندى:

لا عليك فذلك أبو محمَّد ممن شهد القتال وكان له فيه حضور الشجاع، أما سمعته يقول:

كم مَهْمَهٍ قَـذَفٍ قلبُ الـدليـلِ بـه قلبُ المحبِّ قضـاني بعـدَمـا مَـطَلا
عَقَـدْتُ بـالنجم طَـرفي في مَفـاوزه وحُـرَّ وجهي كحَـرِّ الشمس إذ أَفَـلا
أوطَـأْتُ صُمَّ حَصـاهـا خُفَّ يَعْمَلةٍ تَغَشمَـرَت بي اليكَ السهـلَ والجَبَـلا
لـو كنتَ حَشْوَ قميص فـوقَ نُمْـرُقِهـا سمعـتَ للجِـنِّ في غيـطانِها زَجَـلا
حتى وَصَلتُ بنفسٍ مـات أكـثرهـا وليتني عشتُ منهـا بـالـذي فَضَـلا

قلت:

هذا هو أبو الطيب يحضر البأس فيأتي على لسانه وكأنك تراه رأيَ العين، وما كان كغيره من الشعراء يحضرون مهنئين بالفوز مادحين يرضون من البأس أن يفوزوا بما يجاد عليهم.

وليتك أبا محمَّد لم تنه هذه القصيدة العامرة بقولك:

أرجـو نـداكَ ولا أخشى المـطال بـه يـا من اذا وَهَبَ الدنيـا فقـد بخِـلا

أقول: أتراك لم تفز بندى الممدوح لو لم تلحَّ في الطلب الذي «لا تخشَى المطال به»؟

قال أبو الطيب:

تنكرون علينا أن نسلك هذا الطريق فيكون منا نثر اللآلئ الفرائد بين يَدَي الممدوح وتقرّون عيناً بذلك، وتأبون أن يكون منا سؤال؟ فقال قوم: كان أبو الطيب بخيلاً شحيحاً، واصطنعوا في ذلك الكذب المرذول.



وقال آخرون: وما ترجو من ابن سقّاء يبيع الماء في سوق الكوفة.

وقالوا وقالوا.

فأنا ابن الكرام البررة.

ثم ألا ترون أن مثلي لا يكون له أن يكسب العيش بمهنة السوقة، أأكون حائكاً أم أكاراً أم نحو هذا، وانتم تدركون ما الحائك، وما الأكّار؟

قلت: أبا محسَّد، لا عليك فقد عَرفنا هذا الذي يحزنك.

وأنت صاحبي أبا الندى، لقد سمعنا منك منذ أيام سينية أبي الطيب يمدح محمد بن زريق الطرسوسي.

هــذي بـرزتِ لنـا فهجتِ رَسيسـا ثم انثنيـتِ ومـا شَفَيتِ نـسيسـا

....

....

....

الى ان يقول:

بيضـاءُ يمنعُـهـا تَكَـلَّمَ دلُّهـا تـيهـاً ويمنعـهـا الحيـاءُ تميسـا

لمـا وَجَـدتُ دواءَ دائـي عـنـدهـا هـانَتْ عليَّ صفـاتُ جالينـوسـا

ابـقـى زُرَيـقٌ لـلثـغـور محـمـداً أبـقـىَ نـفـيسٌ لـلنـفـيس نفـيسـا

فما تقول أبا الطيب في نسيبك هذا الذي سمعنا منذ أيام، وما أرى أبا الندى الا ذاكراً منه قولك:

خَــودٌ جَنَت بـيـني وبـين عـواذلي حـربـاً وغـادرت الـفؤاد وطـيسـا

فقد قال فيه، وكنتَ قد برحتَ مجلسك هذا:

لعن الله هذا النسيب الذي جَرّ الى حرب حمي فيها الوطيس بين عاشق «لم يدخل العشق قلبه» وعواذل مبغضات ساعيات في الشر.

قال أبو الطيب:

ما كنت حَفيّاً بهذه القصيدة التي غلبت عليّ وقسرتني فيها السين على أن آتي بهذه «الترّهات».



قلت: لله درّك أبا محسَّد، لقد قيل: إنَّ الشاعر حفيٌّ ببناته من قصائده وكلهن لديه كرائم، فكيف جرى لسانك على ما كرهت أن تفضي به؟ إنها لجرأة قاسية، والجرأة موطن قسوة، ولولا القسوة ما دُعِيَت جرأة.

قال أبو الندى:

ولِمَ لم نقف على تحوّل أبي الطيب من النسيب الى المديح؟

قلت: كثرت علي وجوه القول فندّ عنّي ذلك.

ما كان لأبي محسَّد طريق رفيق يتحول فيه الى ممدوحه فيتحقق ما دُعي بـ «حسن التخلص».

وقد حمدت لأبي الطيّب أن قال: إن «السين» قسرتني على أن أدخل فيها فأُعاني من «ترّهاتها».

نعم، لقد دلَّتك السين على «جالينوس» الطبيب الاغريقي المعروف، كما زلّت بك القدم فاستحضرت لها موسى وعيسى والمجوس وابليس وقد دعاك حيّز القصيدة الى أن تفيض من علمك التاريخي فتأتي على ذكر «ذي القرنين»، وذكر «عازَر»، وانشقاق البحر لموسى ـ عليه السلام ـ وغير هذا. وكأن حيّز قصيدتك قد ضاق ذرعاً بهذه الشخوص.

قال أبو الطيب:

لك أن تقول ذلك...

قال أبو الندى:

وهل لنا أن نعرض لمسائل لغوية وقعت في القصيدة؟

قلت: لا تتعجل فتلك مسائل سيكون لها مجلس حافل، وليت أبا الفتح يكون معنا فنناشده في الجواز والرخصة، في حد ما ندعوه ضرورة الشعر.

وأني لأربأ بك، أبا محسَّد، أن يكون في مسألتك لممدوحك تعريض أقبح من صريح السؤال، أتذكرُه أم نسيتَه؟

وإني لأميل الى طيّه ولكنَّكَ ألحَحتَ في طلبك، وهو قولك:

إني نـثرت عليـك درّاً فـانـتـقِـدْ كَـثُـرَ المـدلِّسُ فـاحـذر التـدليسـا



قال أبو الندى:

لقد جُرتَ، أبا الطيب على أدبك فأوردتَه موارد الهلكة، وجعلت المناكير المجاهيل من ممدوحيك شموساً كزُرَيق هذا، وعبدالله بن يحيى البحتري وغيرهما، ما أسخاك فيما جُدتَ فيه من ألقاب، وإني لأتأدب بأدب الذكر الحكيم الذي قرأتُ فيه قوله ـ عزّ من قائل ـ **﴿ولا تنابَزوا بالألقاب. . .﴾**

قلت: كان عليك، أبا الندى، أن تنشد قول الشاعر القديم في الكنية واللقب:

أكنيهِ حين أُناديه لأكرمَه ولا أُلقِّبُهُ والسوأةُ اللقبا

ومن هؤلاء «الأمراء» المجاهيل المناكير أبو عبادة أخو عبدالله بن يحيى البحتريّ، ومساور بن محمد الروميّ، وهذا الروميّ الأمير قد أطلتَ فيه وزدتَ حتى قلتَ:

ان القريضَ شجٍ بِعطفي عائذٌ من أن يكون سَواءَك الممدوحُ

لقد جلّ الشعر عن أن يكون حبيساً على هذا الرومي وحده. ومدحتَه ثانية في أخرى فجعلتها من قافية الذال، والذي دفعك أن تركب هذه الشَموس أنّ الممدوح «مساوراً» الرومي قد قضى على ابن يزداذ الثائر، فحظيت الذال منك بقصيدة أقمتها على هذا الحرف الصعب فكان من موادك الاستاذ والفولاذ، وكرخايا وكلواذ، من قرى سواد العراق، والبرنيّ والآزاذ من أصناف التمر العراقي، ثم حضرت «بغداذ».

لك الله أبا محسَّد، لقد جئت بمدينة السلام في حشو قافية بائرة.

قال أبو الندى:

لا فضّ فوك شيخي لقد جئتَ بها فأحسنتَ.



المجلس الثالث

قال أبو الطيب:

كأنكما تودّان أن نسمَعَ من المديح ما شاركتُ فيه الممدوح فتحدثتُ عن نفسي، فهل لكما أن نعرض للميميّة التي مدحتُ فيها الحسين بن اسحاق التنوخي، والتي أقول في مطلعها:

ملامي النوى في ظُلمها غايةُ الظُّلْمِ   لعلَّ بها مثلَ الذي بي من السُّقْمِ

قال أبو الندى:

أذكر أني أسمعتك، شيخي، منها قبل أن يضمنا مجلس أبي الطيب، وأذكر أنَّكَ علَّقْتَ على حسن تخلصه الى الممدوح بعد عدة أبيات في النسيب.

قلت:

إن لم يخطئ ظني فهي تلك التي جاء فيها قوله:

ترشَّفتُ فاها سُحْرةً فكأنني   ترشَّفتُ حَرَّ الوجدِ من بارِدِ الظَّلْمِ

ثم قال ليخلص الى نفسه مفتخراً:

جَفَتْني كأنّي لست أنطَقَ قومها   وأطعَنَهم والشهبُ في صورة الدُّهْم

أذكر أني قلت: أحسن أبو الطيب في انتقاله هذا وتحولّه الى الفخر بنفسه.

وقد قلت فيما قلت: كان ابو الطيب فارساً شجاعاً، خبر النزال، ونزل كلّ يَهْماء مخوفة فطعن وقتل، وهو يقول بعد أن انصرف من صاحبته التي لا نعرفها ولا يعرفها هو نفسه:

يُحاذرُني حتفي كأنيَ حتفُه   وتَنكُزُني الأفعَى فيقتُلها سُمّي

طوال الرُّدَينيّات يقصِفُها دَمي   وبيضُ السُرَيجيّات يقطعُها لَحْمي

بَـرَتْني السُّرَى بَـرْيَ اُلْمـدَى فَـرَدَدْنني أَخَفَّ على المركوبِ من نَفَسي جِرْمي
وأبصَرَ مـن زرقـاءِ جَـوٍّ لأنّـني متى نَـظَرَت عينـاي سـاواهمـا علمي
كـأنّي دَحَوتُ الأرضَ من خـبرتي بها كأنّي بَنَى الإسكندرُ السـدَّ من عَزمي

فأحسن التخلص وأجاد القول، وتأتّى لفخره بأدواتـه من «الردينيـات» و«السُّرَيجيّـات» ونصبه في سُراه وغـير هذا مما يكون لـه من وصف المسالـك والصعاب، وما يكون من جواده أو راحلته التي اعانته على شقائه. وهو يأتي فوق ذاك بفوائد يجعلها من أدواته في فخره هي بعض علمه ومعرفته، ألا تراه عرَّج على بناء الاسكندر للسد، واتخذ ذلك شيئاً أعانه في قوله: انه صاحب عزم لا يعرفه أفذاذ الرجال.

قال أبو الطيب:

كأن بكما حاجةً لم تصلا إليها، وهي شيء مما يهمّكُما أمره.

قال أبو الندى:

أتريد أن تقول: إنك أبا الطيّب، لم تقصر مدحك على شجاعة الممدوح واجادته فن القتال طعناً وقتلاً، بل تجاوزتَ ذلك الى وصفك الممدوح باللسَّن والفصاحة وأنك قلتَ:

وأسمَـع من ألفـاظِـه اللغـةَ الـتي يَلَذّ بهـا سمعي ولـو ضُمِّنَت شَتْمي

قلت:

أحسنت القول، أبا الندى، ولكنك لم تصب الغرض الذي أومأ إليه أبو الطيب.

قال أبو الندى:

لقد استفرغنا القصيدة حتى لم يبق فيها بقية لقول.

قلت:

كأني بأبي الطيب قد أراد التخلص الحسن من فخره بنفسه الى التحول الى مدح ممدوحه، ألا ترى، أبا الندى، أن أبا الطيب قد قال:

كـأني دَحَوت الأرضَ من خـبرتي بها كأنّي بنى الاسكندر السـدَّ من عزمي

ليقول بعد ذلك «متخلصاً» مجيداً:



لألقَى ابن اسحاقَ الذي دقَّ فهمه فـأبـدَعَ حتى جَـلَّ عن دقَّـةِ الفَهْم

ثم يمضي في مديحه.....

قال أبو الطيب:

هو ذاك الذي أومأت إليه. ثم إني استحضر في مديحي ما عُرف في الممدوح، وليست هي خلال حميدة أضعها بين يَدَي فأوزعها في فلان وفلان.

قلت:

ربما أومأتَ الى ما كنا قد تحدثنا فيه في مجلسنا الأول. وأود أن أضيف فأنبّه أبا الندى الى قول أبي الطيب في معرض مديحه:

فـدىً مَن عـلى الغَـبْراء أوّلهم أنـا لهذا الأبيِّ الماجدِ الجائـدِ القَرْمِ

وقوله هذا قد جرى عليه في قصائد أخرى ليظهر فضل الممدوح العميم، الذي يجب أن يقابل على هذا النحو من التضحية والإخلاص. ولكنه شطح في إثبات شجاعة الممدوح وفراسته فذهب في ذلك الى قوله فيه:

لقـد حـال بـين الجِنِّ والأمنِ سيفُـه فما الظنُّ بعد الجِنّ بالعُرْبِ والعُجْمِ

وكأنه اذا أراد ان يضفي على الممدوح صفة الكمال شطح الى ما يشبه الإحالة فاقترب من الكفر، وقد رأينا شيئاً من هذا فعرضنا له في مجلسنا الأول، وسيكون منه مسائل أخرى سنقف عليها في مديحه.

قال أبو الندى:

لم يكن لي أن أعقّب لولا ما سمعت من شيخي في أمر ما يشطح به اللسان، وهو مستغرب الكلم الذي غلب عليه. ومن ذلك ما أنسبه الى شطحات أبي محسَّد، وهو في نشوة المديح في مدح علي بن سيّار بن مكرَّم التميميّ:

ولـمَّا قـلَّت الإبـلُ امـتـطـيـنـا الى ابـن ابي سـليـمان الـقـلوبـا

ومثل هذا من قوله في مدح أبي أيّوب احمد بن عمران:

إنيّ عـلى شَغَفي بمـا في خُمـرهـا لأعِـفُّ عـما في سَراويـلاتهـا



ولو أنكم قرأتم تعليق ضياء الدين ابن الأثير في «المثل السائر» لأدركتم أن أهل الرأي قد نكروا قوله هذا فقال فيه أحدهم: ان الفسق أهون من «عفة» أبي الطيب.

ومن هذا ما ورد من قوله في مدح أبي سهل سعيد بن عبيدالله بن الحسن الانطاكي:

لـو استطَعتُ ركبت النـاس كلَّهُمُ الى سعيـد بـن عبـدالله بُعـرانـا

أيكون كرم أبي الطيّب قد تجاوز الحدود وأساء فيه الى الناس، وكأني بالممدوح قد أبى عليه هذا الغلو والاستكبار، وهو وأبو الطيب من الناس.

قال ابو الطيب:

على رسلك أبا الندى، لو أنك كنتَ في مقامي، وأنا أعِدُّ القصيدة، وعانيتَ ما كنتُ أعانيه، لوجَدْتُ من سماحتك وأدبك ما يخفف من مقالتك فيَّ، أما قرأت من قولي في مدح علي بن منصور الحاجب:

أظـمَـتْـنيَ الـدنيـا فـلمّا جئـتُـهـا مُستَسْقيـاً مَـطَرَت عـليّ مصـائبـا

قلت:

كنت أودّ الا نتعجل في الخوض في مسائل تتصل بلغة أبي الطيب وصنعته الأدبية. ولنمض في حاجتنا في استقصاء باب المديح. وقد حظي علي بن ابراهيم التنوخي من أبي الطيّب بعدة قصائد محجّلة، ولنقف على واحدة مشهورة منها وهي التي مطلعها:

أحـقُّ عـافٍ بـدَمعـكَ الهِـمَـمُ أحـدَثُ شيءٍ عـهـداً بهـا القِـدَمُ

قال أبو الندى:

كأنك تريد ان تُحاور فيها أبا الطيب، وقد كنّا أنت وأنا قد وقفنا منها على موارد كان لنا فيها بحث جاد، فهل بقي من ذلك بقية لقول؟ كأني بك تبغي أن تسأل أبا الطيب عن عزوفه عن مقدمة النسيب...

قلت:

قد يكون شيء من هذا، ولكني أردت أن أقول: ان المقدمة في النسيب



ليست ضرورة، وان لأبي الطيب منه ما يفي بهذا الغرض، ذلك أنه قد يبلغ به التأثر فيجيب في حماسة تطوي ذكر النسيب، وليست به حاجة للنسيب كما سنرى في مجلس قادم.

قال أبو الندى:

ألكما أن نسمع مديحه في المغيث بن عليّ بن بشر العجليّ؟

قلت:

إن لأبي الطيب فيه قصيدتين، وكأنك تومئ الى البائية التي عرضنا لها من قبل فلم نظفر بحاجتنا، وقد جاء في مطلعها:

دمعٌ جَرَى فقَضَى في الربع ما وَجَبا   لأهلِه وشَفَى أَنَّى ولا كَرَبا

وقد مررنا بالنسيب فلم يستوقفنا قوله:

هامَ الفؤاد بأعرابيّة سكنَتْ   بيتاً من القلب لم تَمْدُدْ له طُنُبا

وقد قلنا في قول أبي الطيب: إن قوله: «لم تمْدُدْ له طُنُبا» شيء اقتضاه سلطان القافية، ذلك إنها «سكنت القلب».

وقد أنسنا بل ضحكنا لقوله:

مرَّتْ بنا بين تِرْبَيْها فقلتُ لها   من اينَ جانَسَ هذا الشادنُ العَرَبا

لأننا عجبنا من عُنف أبي الطيب الذي لوى «جيد» البيت ليصل منه الى الممدوح إذ قال:

فاستضحَكَتْ ثم قالت «كالمغيث» يُرَى   ليثَ الشرى، وهو من «عِجْلٍ» اذا انتسبا

وفي البيت جاء «المغيث» وصفاً لها، وهو اسم الممدوح أيضاً، وهو المقصود، لأنه «ليث الشرى» وهو من قبيلة عِجْل.

ولي أن أسأل أبا الطيب: «أأنت راض عن هذه التورية، ألا ترى في «المغيث» وهو ليث الشرى ثم يكون من «عجل» ضرباً من عدم التناسب؟

قال أبو الطيب:

شدَّدْتَ علي الحساب، ألا ترى ان الشاعر مُمتَحَن تشتدّ عليه محنته فيضيق به العَطَن، وإن لوازمه كُثُر، والوصول اليها، والوفاء بها لا يتأتّى إلاّ لصاحب



فنّ مُجيد، وقد تشتَدُّ المحنة فتزلُّ به القدم. ثم أليس لي أن أقول: إني ذلك المَجيد صاحب الفن، وإني ممّن تعرفهم، وقليل ما هم.

قال أبو الندى:

مدح «المغيث» فأجاد ومدح معه قومه بني عِجْل فقال:

هــزَّ اللواءَ بنو عِجْـلٍ بـه فغَـدَا   رَأسـاً لهم وغـدا كـلٌّ لـه ذَنَبـا
الـتـاركـين مـن الأشـيـاء أهـونَها   والـراكبـين من الأشيـاء مـا صَعُبـا

. . . .

. . . .

محـامدٌ نَـزَفَتْ شعـري ليمـلأهـا   فـآل مـا امتـلأتْ منـه ولا نَضَبـا
لـمَّا أقـمتَ بـأنـطاكـيّـةَ اختـلَفَـتْ   اليَّ بـالخَـبَرِ الـركبـانُ في حَـلَبـا
فسِـرتُ نحـوَكَ لا ألـوي عـلى أحَـدٍ   أحُـثُّ راحـلـتيَّ الـفـقـرَ والأدبـا

وقد فاتني أن أتلو شيئاً من غلوّه في وصف جود المغيث وسماحته:

ولا يَـرُدّ بِـفـيـهِ كـفَّ سـائِـلـه   من نفسـه، ويـرُدُّ الجحفـلَ اللجِبا
وكـلَّما لـقـيَ الـديـنـارَ صـاحـبَـه   في مُلكِـه افترقـا من قبـل يصطحبا
مـالٌ كـأنَّ غـرابَ الـبـينِ يـرقُبُـه   فـكـلَّما قـيـل هـذا مُجْـتـدٍ نَـعَبـا

قال أبو الطيب:

وما عندكما فيما قلت، كأنّك، أبا الندى، تقول: قد سئمت المقام في حَلَب، وان القوم بَرِموا بإقامتي، ولم يبق لي فيهم ما أفيد، وكان لي من ذلك الكثير.

وكأنك تعيب عليّ إظهاري حاجتي وفقري، وأني لا أملك إلا أدباً أجعله عدَّتي ورأس مالي، وكأنك تذكِّرني بما قلت في علي بن ابراهيم التنوخي:

وشغـل النـفس عن طـلب المعـالي   ببيـع الـشعـر في سـوق الـكسـاد

اتق الله، أبا الندى، فيَّ، ولا تذهب في شُبُهاتِكَ فتشايع قوماً جحدوني حقي وأنكروا فضلي وتقدّمي.

قلت:

أراك، أبا الندى، عرَّضْتَ ولم تصرِّح، وأيّ شيء أردت أن تقوله في الأبيات الثلاثة التي تقدمت في ممدوحه؟

كأنك أردتَ أن تقول: إنها صنعة شاعر عرف كيف يتسع فيما يريد قوله.

لقد أفدنا من قصيدة شاعرنا أبي الطيب، وكنت أود لو أنك ابتدأتَ التلاوة فتلوتَ الميمية التي كانت من أدب أبي محسَّد الصميم...

قال أبو الطيب:

وليس لي شيء من قولك «أدب صميم» أتريد أن تقول إنك عزفت فيه عما اصطلح عليه من «المقدمات» في النسيب، تلك «المقدمات» التي حيّرت أصحابها فلم يفلحوا في طرحها عنهم وإلقاء العبء عنهم، ولا أقول: «التخلص»؟ أردت ان تقول: إني ركنت الى أمر أقوم له وأقعُدُ، وهو مقامي بين الناس، وسلوكي معهم وما كان لي من سوءاتهم. وأنا في هذا أطلق لنفسي العنان لأقول ما اهتديت له، ولا يهُمّني أن أُغضب فلاناً أو غيره.

قلت:

أحسنَت القولَ، وأصبت الغرض، وإني لأرى ما ترى من أنك إذا حَزَبك أمر، وأخذ منك مأخذه فأنت إليه أسرع منك إلى أمر آخر تأتي إليه بما اعتاد أهل الفن أن يباشروا من أمره. وهكذا ملتَ الى طبعك في هذه الميميّة فقلتَ:

فؤادٌ ما تُسلّيهِ المدامُ وعمرٌ مثلُما تَهَبُ اللئامُ

في ميميتك هذه جمعت بين نفسك أو قلبك أو عقلك وبين التوجه الى صاحبك المغيث بن علي العجليّ. وكأن القسم الأول نصيف مادة القصيدة وهي غرضك كما ان المدح غرض لك. وليس الأمر فيها كشأنك في قصائد أخرى كثيرة جريت فيها على ما جرى عليه غيرك من الشعراء، إذ لا بد فيها من «مقدمة» أو تمهيد يُنتقَل منه الى المديح.

وأتيتَ فيها على ما يحزبك من شجون فقلتَ في الناس:

ودهرٌ ناسُه ناسٌ صغار وإن كانت له جثث ضخام

وقد أبعدت نفسك عنهم وان كنت تعاشرهم، تحتاج إليهم، ويحتاجون اليك، وقلت:

أرانبُ غيرَ أنَّهُم ملوكٌ مفتَّحةٌ عُيونُهم نيامُ

وليس لي أن أذهب الى سائر الأبيات التي عرضت فيها للناس، لأننا جعلنا لذلك مجلساً آخر غير هذا.

ولنعرض للأبيات الأخرى التي تتصل بالأفكار الأخرى، ومن ذلك؛ قولك:

ولو حيزَ الحفاظُ بغير عقلٍ تجنَّبَ عُنْقَ صيقلِهِ الحسامُ

. . . .

ولو لم يَعْلُ إلاَّ ذو مَحَلٍّ تعالَى الجيش وانحطَّ القتامُ

ولو لم يرع إلاَّ مستحِقٌّ لرتبته أسامَهُمُ المُسامُ

ومن خَبَرَ الغَواني فالغواني ضياءٌ في بواطنه ظلامُ

إذا كانَ الشبابُ السُّكرَ والشيبُ هَمّاً فالحياةُ هي الحِمامُ

وما كلٌّ بمعذورٍ ببُخلٍ ولا كلٌّ على بُخلٍ يُلامُ

لقد شُغِلتَ، أبا الطيب، بهذه الفرائد فأرسلتَها قولاً جميلاً يردده المعجبون في كل عصر، ولا أقول: «حكمة»، فهذه كلمة قديمة جنى عليها أهل العلم فصيروها طِبّاً، وفَلَكاً وفلسفةً وغيرها.

ولا أذهب في قولك:

«ومن خبر الغواني فالغواني»

الى ما ذهبَ إليه نفر من أهل الدرس فزعموا فيما زعموا انك تومئ الى عالم النور وعالم الظلام ممّا يقوله «الثنوية». ولكني اذهب معك في سماحة ويُسر الى أنك لا ترى في الغواني ولا في النساء إلا بهرَجاً وزَيْفاً.

ورضيت لك هذا الفهم للحياة الجادة التي تشعر بالحياة ماثلةً بعيدةً عن الوهم والخيال في قولك:

إذا كان الشبابُ السُّكْرَ والشيبُ همّاً فالحياةُ هي الحِمامُ

قال أبو الندى:



كأنك، شيخي، قد شُغلتَ بشاعرك، وإني لأعرف من مودَّتك له، وأذكر أن ديوانه كان الأثير بك تؤثره على سائر دواوين الشعراء. وإني وإنْ كنتُ غرسَ يَدَيك، وأحسو من كأسك لشديد الصلة بصاحبك أبي محسَّد، ذلك ما أورثتَنيه من كريم الخلال. فهل لي أن أقول لكما ما كنت قد أخذتُه أيام الطلب، وهو قولة أحد أهل العلم: أبو تمّام والمتنبي حكيمان، والشاعر البحتري.

فماذا تقولان في هذه المقولة؟

قال أبو الطيب:

لا أعرف مَن يكون هذا القائل، ولكني أعرف أبا تمام، وقد حفظت من شعره قبل ان أقرزم شيئاً، ورضيت يومئذٍ ما كنت حفظته منه لنفسي.

غير أني أنكر ان يكون حبيب بن أوس قِرناً لي أو إنّي وإيّاه فرسا رهان. فتّشتُ عن «الحكمة» في شعره فلم أجدها إلا في أشتات يسيرة اقتُطِفَتْ ثمرةً فجّةً، ما كانت الألسنة لتتقبل منها السائغ المستطاب، وأنّى له ذلك:

أنامُ ملءَ جفوني عن شواردِها ويَسْهَرُ الخَلْقُ جَرّاها ويختصِمُ

قلت:

قطعَتْ جَهيزةُ قولَ كلِّ خطيب.

ولننتقل الى ممدوح آخر لا نعرف من حاله إلا القليل هو ابو الفرج أحمد ابن الحسين القاضي المالكي.

وما أظنك، أبا الندى، قد تلوتَ الفائيّة التي توجَّه فيها شاعرنا الى القاضي المالكيّ.

قلتُ: لا أعرف هذا القاضي المالكيّ، والذي في حفظي هو القاضي عبد الوهاب المالكيّ، الذي هَجَر مدينة السلام لأنه لم يجد فيها أسباب العيش. قد يكون المالكيّ القاضي احد اصحاب المتنبي، وكان من محبيه يؤثره بمودّته فخصَّه بمديحه الذي ضَنَّ على كثير ممّن سألوه أن يقول فيهم شيئاً.

إنه قاض من أهل العلم، فلا بد أن يُثني على علمه وفضله، فهل لك ان تتلو الفائية يا أبا الندى لنستمع اليها؟



قال أبو الطيب:

هـو بـعض أحبـائـي أحبـبـتُـه كـما قـلتَ لـفـضـله وعـلمـه

قال أبو الندى:

دونك الفائية، ولا أريد أن أثقل عليك بما بدِئتْ به من نسيب، لأني أعرف من رأيك في الطبع والصنعة، ألك ان تسمع المطلع وهو:

لِجِنّيَـةٍ أم غـادةٍ رُفِـعَ السـجـفُ　　لـوَحْشيّـةٍ لا مـا لـوَحْشيّـةٍ شَنْفُ

وفيها يقول:

....　　.................

....　　.................

أراقَتْ دَمي مَن بي من الوجد ما بها　　من الوَجد بي والشوق لي ولها حِلْفُ

الى أن يقول:

ضَنىً في الهوَى كالسُّمِّ في الشهد كامناً　　لـذِذْتُ به جهـلاً، وفي اللذّة الحتفُ

فـأفْنَى ومـا أفنَتْـه نفسي كـأنّمـا　　أبـو الفَـرَج القـاضي لـه دونَها كَهْفُ

وهكذا عَزَف على عَجَل عـمّا كان لـه من نسيب ليخلص إلى القاضي المالكيّ الذي مَدَحه فأشار إلى فضله وأدبه وعلمه فقال:

قليل الكرَى لو كانت البيض والقنا　　كـآرائـه مـا أغنَتْ البيضُ وَالـزَّغْفُ

يقـوم مَقام الجيش تقـطيب وجهـه　　ويستغـرقُ الألفاظَ من لفـظه حـرفُ

وإنْ فَـقَـدَ الإعـطاء حَنَّت يمينـه　　إليـه حنـينَ الإلْفِ فـارقَـه الإلْفُ

أديبٌ رَسَت للعلم فى أرض صـدره　　جبالٌ جبالُ الأرض في جَنْبِها قُفُّ

ثم أطال في هذه الصفات إلى أن قال:

قصـدتُكَ والـراجون قصـدي إليهم　　كثيرٌ ولكن ليس كـالـذَنَبِ الأنْفُ

ولا الفضّـة البيضـاءُ والتِّبرُ واحـداً　　نَفـوعـان للمُكـدي وبينهـما صَـرْفُ

قلت:

لقد أفدتَنا بالذي بَسطْتَ في هذه الفائية المحجَّلة.

المجلس الرابع

قال أبو الندى:

هل لنا أن نعرض لبائية شاعرنا التي حفظها أهل الأدب، وقالوا فيها ما قالوا:

قلت:

كأنك تقصد المحجلة في بحر الكامل التي مطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

تلك التي أكثر فيها من وصف «شموسه»، وهل لك، أبا محسّد، منهن شمس واحدة. حتى إذا انتهيتَ من «المُنهبات» و«الناهبات» و«الناعمات» و«القاتلات» و«المحييات» و«المبديات» و«الغوارب» و«الغرائب» و«الجلابيب»، وكان ذلك في ستة أبيات، عطفتَ على «واديك» فقلت:

يا حبّذا المتحمّلون وحبذا وادٍ لثمتُ به الغزالة كاعبا

لتقول عن نفسك ووجعك، وإن الدنيا أظمتكَ فاستسقيتها فمَطَرت المصائب»، ولتنتهي من ذلك إلى حالك التي إذا عَلِمَ بها ممدوحُك علي بن منصور الحاجب، أقبل الزمان عليك «تائباً».

ثم إنه الملك الشجاع الجواد الذي يتبارى فيه سنانه وبنانه، ثم تدخل عالم معركته فتصف الأرض وزلزالها، والجبال وقد دُكّت إلى آخر هذه الأشتات مما يسمح به أدب الحرب.

قال أبو الندى:



ويل لأهل اللغة وأصحاب البديع، وما أظنهم إلا حُسّاداً شَنَأة.

ذكروا أن «جلابب» هي «جلابيب» أليس في ذلك رُخْصة؟

وقالوا: «مَطَرت»، والكثير المشهور أمطرت، أليس هذا مما قيل ويقال، وهل خلا شعر الإسلاميين من هذه النكات؟ غير أني لاحظت في أدب شاعرنا استعماله التفدية الذي وجدته هنا وهناك وقد يكون مثله القسم، قال:

بأبي الشموس الجانحات....

وأقسمت فقلت في أخرى:

بما بعينيك من سُقم صلي دَنِفاً

وشيء آخر لم يحضرني الساعة!

قلت:

هذه من لوازم الشعر في عصر أبي محسّد، وقد سبق لأبي عبادة أن قال:

عذيرى فيكِ من لاحٍ إذا ما ذَكَرتُ الشوق حَرَّقني ملاما
فلا وأبيكِ ما قارفتُ ذنباً ولا قارفتُ فى حُبّيكِ ذاما

وكأن شعراء الشيعة عامة أحبّوا هذا القسم فأكثروا منه.

قال أبو الطيب:

ما أسعدني هذه الليلة أن أجالس صاحبيّ فاسمع منهما كلمات كالشهد المصَفّى.

و«هذه البائية» قد وجدتم فيها من الأدب ما وجدتم، وهي ليست أكرم من كرائمي، وهُن كثر، كما أشرت ان «شموسي» قد كثرت فيها.

قال أبو الندى:

هل لنا أن نظفر بمديح أبي الطيب لعبد الواحد بن العباس بن أبي الإصبع الكاتب؟

قلت:

أيّهما تعني أميميَّته البارعة أم عينيَّته التي حدَّثتَني يوماً عنها؟

قال أبو الندى:

لنبدأ الميميَّة التي بُدِئتْ بنسيب أحسن فيه شاعرنا صنعته، وأفرغ فيه من حذفه فقال:

نَرَى عِظَماً بالبين والصدُّ أعظم ... ونتّهمُ الواشين والدمع منهمُ

. . . .

ولما التقَينا والنَّوَى ورقيبُنا ... غَفولانِ عنّا ظِلتُ أبكي وتبسِمُ

فلم أرَ بدراً ضاحكاً مثلَ وَجْهها ... ولم تَرَ قبلي ميِّتاً يتكلَّمُ

ظَلومٌ كمَتْنَيْها لصَبٍّ كخَصْرِها ... ضعيفِ القُوَى من فعلها يتظلَّم

. . . .

فلو كان قلبي خالياً كان دارها ... ولكنَّ جَيْشَ الشوقِ فيه عَرَمْرَمُ

إلى أن يقول في «تخلّص»:

بنفسي الخيالُ الزائري بعد هَجْعةٍ ... وقولتُه لي بعدَنا الغمضَ تطعَمُ

سلامٌ فلولا الخوف والبخلُ عنده ... لقلتُ أبو حَفْصٍ علينا المسَلِّمُ

مُحِبُّ الندَى الصابي إلى بذلِ مالهِ ... صُبُوّاً كما يصبو المحبُّ المتيَّمُ

وأَقسِم لولا أنّ في كلِّ شَعْرةٍ ... له ضَيْغماً قُلنا له أنتَ ضَيغَمُ

. . . .

. . . .

ولا يُبْرَمُ الأمرُ الذي هو حالِلٌ ... ولا يُحلَلُ الأمرُ الذي هو مُبرَمُ

قلت:

لقد أحسنتَ، لقد نبَّهتْني تلاوتك إلى مسائل أظنّك قصدتَها.

كأنك وقفتَ في تلاوتك قليلاً على «ظلتُ»، ونسيتَ أمرَها وقد كنتَ عرفتَه أيام الطلب. هي: «ظلتُ» بفتح الظاء أو كسرها، وهي «ظَلَلت» على الأصل.

إن صاحبنا أبا محمَّد يعرف هذا، ويعرف الكثير من هذه الشذرات. وقد كان في منهجنا أن يكون لنا «مجلس» خاص نعرض فيه للّغة ونستمع لأبي الطيب في مسائل عدة، ولولا أن المقام اقتضى ذكرها الآن لكان لها في مجلسنا الآتي مكان.

قال أبو الطيب:

لقد قلتَ قبل قليل: إن القسَمَ من لوازمي، وأنا أقرُّ لك بذلك. وأريد أن أشير إلى قولي:

وأقسِمُ لولا أنّ فى كل شعرة ....

قلت:

ولا يفوتني أن أذكر هنا قولك:

فلا يُبرَمُ الأمرُ الذي هو حالِلٌ ولا يُحلَلُ الأمرُ الذي هو مُبْرَمُ

وهو البيت الشاهد في كتب أهل البلاغة، وجعلوا البيت داخلاً في مخالفة القياس، وهو شيء لا ترتضيه فصاحة الكلمة العربية.

لا أدري: ما تقول في هذا، أبا محمَّد؟

أتريد أن تسخر من أهل البلاغة فتنكر عليهم قولهم، وسخريتك منهم تندرج في سخريتك من الشعراء ومن الناس عامة، ألم تخاطب سيف الدولة بن حمدان فقلت:

بأيِّ حقٍّ تقول الشعر زِعْنِفةٌ تجوزُ عندَكَ لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ

أم تريد أن تقول: إن فكّ الإدغام لغة قومٍ من العرب؟

قال أبو الطيب:

ألا يجوز لي، وأنا الذي لم أترك شاردة ولا واردة من العربية إلا أدركتها، أن أقول لغتي، وأفرضها، وليقل هؤلاء ما يقولون؟

قال أبو الندى:



ما أظن في القصيدة ما يدعو إلى أن نطيل فيها، فقد خلص أبو محمَّد إلى صاحبه يُشيد بسماحته وجوده.

ويحسن بنا أن نتحول إلى العينية في الممدوح نفسه التي مطلعها:

أركائبَ الأحبابِ إنّ الأدمُعا ... تَطِسُ الخُدودَ كما تطِسْنَ اليرْمَعا

قلت:

كأنّك، أبا الندى، أردت أن تقول في «وَطَسَ» وفي اليَرْمع»: إنهما من الغريب، وقد تلقَّف أبو الطيب «يَرْمَعَه» هذا ليقيم القافية، وهو الحجارة الرخوة، فاستعار لها «الوَطْس» وهو الضرب الشديد.

ولقد مررتَ على شيء في القصيدة، ولم يكن لك أن تشير إليه، وهو قول أبي محمَّد في صنعته بل في تصنّعه:

نَشَرَت ثلاثَ ذوائبٍ من شعرها ... في ليلةٍ فأرَتْ ليالِيَ أربَعا

واستقبَلَتْ قَمَر السماء بوجهها ... فأرتنيَ القَمَرَيْنِ في وقتٍ مَعا

أقول: لو وَجَدْتَ أبا محمَّد نظير هذه الصنعة في شعر حبيب بن أوس لأكثرتَ فيه القول، ولكنك حفيٌّ بكرائمكَ على كلّ حال.

قال أبو الطيّب:

لك أن تقول: صنعة أو تصنّع، ولغيرك أن يقول ما حلا له أن يقول، وأنا أجلّ شعري وأكرّمه، وما أراني فرّطت فيه.

قال أبو الندى:

وهل لي أن أتمَّ تلاوتي فأنشد:

رُدّي الوصالَ سَقَى طلولك عارضي ... لو كانَ وصلُكِ مثله ما أقشَعا

زَجِلٌ يُريكَ الجوَّ ناراً والمَلا ... كالبحرِ والتَلَعاتِ رَوْضاً مُمرِعا

كبَنانِ عبد الواحدِ الغَدِق الذي ... أروَى وأمَّنَ من يشاء وأمرَعا

ألِفَ المروءة مُذْ نَشَا فكأنّه ... سُقِيَ اللِّبانَ بها صَبِيّاً مُرْضَعا

قلتُ:

أتريد أن تذكرنا بما أشرنا إليه من لوازم أبي الطيب في التفدية والقَسَم فتلوت قوله:

ألِفَ المروءَة . . . .

لتشير إلى الدعاء في قوله: «سُقِيَ اللبان. . .».

قال أبو الندى:

هو ذاك. . .

قال أبو الطيب:

وهل لكما في هذا قولٌ عليٌّ؟

قلتُ:

لا تبتئس، أبا محسَّد، فخيرك كثير، وإحسانك جمّ، وفرائدك شواهد لك لا عليك.

ولكني أريد أن أسمعك كثرة الصفات والنعوت التي وصفت بها الممدوح، فهل ترى في درجها في بيتين فضلة من إحسان؟

قلتَ:

متكشِّفاً لعُداتِهِ من سَطْوةٍ	أو حكّ مَنكِبُها السماءَ لزَعْزَعا
الحازمَ اليقِظَ الأغرَّ العالم الـ	ـفَطِنَ الألَدَّ الأريحيَّ الأروَعا
الكاتبَ اللبِقَ الخطيب الواهبَ الـ	ـنَّدُسَ اللبيبَ الهِبْرِزِيَّ المصقَعا
نَفْسٌ لها خُلُقُ الزمانِ لأنَّه	مُفْني النفوسِ مُفرِّق ما جَمَّعا

كأنك أردتَ أن تختصر مسافة القصيدة فجمعت هذه الصفات الحميدة وهي كثيرة لا تجتمع في رجل واحد، ولا حاجة أن تُحشَر في بيتَين.

قال أبو الندى:

أمن الخير أن نشبِّه الممدوح، وهو معدن الخير والكمال، بـ«خُلُق الزمان»

ولو كان هناك وجهٌ للشبه؟

ثم ألنا أن نتلو اللامية «الخفيفة» في مدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي ومطلعها:

صِلةُ الهجر لي وهَجْرُ الوِصالِ نَكَساني في السُقم نُكْسَ الهلالِ

قلتُ:

ذلك ما ترى. وعندي فيها وقفات هي أنّ أبا محسّد قد أوجز «مقدمته» ليصل إلى نفسه يبسط من آلامها ويفتخر في حماسته المحبّبة فيقول:

لا تلمني فإنّني أعشقُ العُشّـ ـاقِ فيها يا أعذَلَ العُذّالِ
ما تريد النوى من الحيَّة الذَوّ اقِ حرَّ الفَلا وبَرْدَ الظِلالِ
فهو أمضَى في الرَّوع من مَلَكِ الموتِ وأسرَى في ظُلْمةٍ من خَيالِ
ولِحَتْفٍ في العزِّ يدنو محبٌّ ولِعُمْرٍ يطول في الذلِّ قالِ

قال أبو الندى:

وأين أنت من قول أبي محسَّد:

نحن رَكْبٌ مِلْجِنٍّ في زيِّ ناسٍ فوق طَيرٍ لها شُخوصُ الجمالِ
من بنات الجديل تمشي بنا في الـ ـبيدِ مَشْيَ الأيامِ في الآجالِ

وقوله: «مِلْجِنّ» أي من الجنّ، وهذا معروف في شعر المتقدمين، وقوله: «فوق طير» أي فوق ركائب كالطير في سرعتها، ثم عرَّف بها فقال: من بنات الجديل، وبنات الجديل من مواد أدبنا القديم.

قلتُ:

أحسنتَ أبا الندى في إشارتك هذه، فهي في سير شاعرنا إلى ممدوحه فقال:

عامداتٍ للبدرِ والبحرِ والضِرْ غامةِ ابنِ المُبارَكِ المفضالِ

قال أبو الندى:

وأين نحن من همزيته في مدح أبي علي هارون بن عبد العزيز الأوراجيّ الكاتب التي مطلعها:

أمِنَ ازديـارَكِ في الـدجى الـرقبـاء ... إذ حيث كنتِ مـن الـظلامِ ضيـاءُ

ثم خمسة أبيات، يغادرها أبو الطيّب قائلاً:

أنـا صخـرة الـوادي إذا مـا زوحمتْ ... وإذا نـطقْـتُ فـإنـني الجـوزاء

قال أبو الطيب:

كأني فطنت إلى وقفتك على عجز المطلع فلم يبن لك الوجه أوّل مرة، ولكني واثق من فهمك للأساليب وسير العربية فيها، وما يكـون من النحو الحسن الذي يبتعد عن فساد التركيب.

قلت:

ألم أقل لك، أبا الندى، إن أبا محسّد من رجال العربية، وإلى هذا أشار أهل الأدب، وحسبك أن يرتضيه أبو الفتح ابن جني، وهو من هو في العربية.

لقد وصلتَ، أبا الطيب، إلى ممدوحك فاجتزتَ «عقاب لبنان» وثلوجها فقلتَ:

وعِقـابُ لبنـانٍ وكيف بقـطعهـا ... وهـو الـشتـاء وصيفُـهُنّ شتـاء

لبِسَ الثلوج بهـا عـلي مسـالكي ... فـكـأنّها ببـيـاضـهـا سَـوْداءُ

ثم تصل إلى المديح فتشير إلى علمه وجوده.

ولقد وقفتُ طويلاً على بيتك الأخير الذي تضمن فوائد لغوية ودلالية، وهو:

لـو لم تكن من ذا الـوَرَى اللّذْ منـك عَـقِـمَـتْ بمـولِـدِ نَـسْـلِهـا حَوّاءُ

قال أبو الندى:

ولأبي الطيب في ممدوح مشهور صاحب مقام هو بـدر بن عمّار قصائد عدّة، ولا بد أن نفيد منها.



وبدر بن عمّار قائد تولّى حرب طبرية من قبل أبي بكر محمد بن رائق سنة ٣٢٨، فماذا يقول فيه أبو الطيب، ولم يتأتَّ كعادته إلى مدحه بشيء من النسيب، بل قال:

أحُلماً نَرى أم زماناً جديدا أم الخَلق في شخص حيٍّ أعيدا

. . . .

رأينا ببَدْرٍ وآبائه لبَدْرٍ وَلوداً وبَدْراً وليدا

ثم لا بد أن يشير إلى شجاعته وحسن بلائه في الحرب، وإلى جوده وكرمه.

وهو القائل فيه من قصيدة أخرى:

يا بدرُ يا بحرُ يا غمامةُ يا ليثَ الشَرَى يا حِمامُ يا رجل

قال أبو الطيب:

أليس لك أن تتلو قصيدتي اللامية فيه، وقد خرج إلى أسد فهرَب الأسد منه، وكان قد خرج قبله إلى أسد آخر فهاجه عن بقرة افترسها بعد أن شبع وثقل فوثب إلى كَفَل فرسي فأعجلني عن استلال سيفي فضربته بالسوط ودار به الجيش.

قلت:

لا تتعجَّلْ، أبا الطيّب، فلنا في لاميتك الأخرى فوائد، وهي في قصيدتك التي مطلعها:

بقائي شاءَ ليس هُمُ ارتحالا وحُسْنَ الصبر زَمّوا لا الجِمالا

ولنترك أبياتاً ثمانية من نسيبك لنصل إلى قولك:

بَدَتْ قَمَراً ومالتْ خَوطَ بانٍ وفاحَت عنبراً ورَنَت غزالا
وجارتْ في الحكومة ثم أبدَتْ لنا من حُسن قامتها اعتدالا

لأقول: إن هذه الصنعة ليست من طبعك، فهلا كان لك عدول عنها؟



قال أبو الطيب:

لك أن تقول ذلك، ولكن الحَسَن لا يتاح لصاحبه في كل حين، والشعر صناعة صعبة لا يقوى عليها إلا الأديب المتفنن العالم الذكي، وأنّى هذا في كل حين؟

قلتُ:

عرفتُ مواضع الكلم فأحسنتَ وضعه وأجَدْتَ القول.

وبدر بن عمّار قائد شجاع ورث خصاله من آبائه فيحق لك، وأنت محسن، أن تقول فيه:

فيا ابنَ الطاعنين بكل لَدْنٍ   مواضعَ يشتكي البَطَلُ السُعالا
ويا ابنَ الضاربين بكل عَضْبٍ   من العَرَب الأسافِلَ والقلالا

ومن عجائبك أنك تنطلق بالقول الصائب وما يكون مما يُتمثَّل فيه، وأنت في معرض المدح وتعداد محامد الممدوح، ألم تقل بعد قولك:

أرَى المتشاعرين غَروا بذمّي   ومن ذا يحمَدُ الداءَ العُضالا
ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ   يجدْ مُرّاً به الماءَ الزُلالا

قال أبو الندى:

لنعد إلى ما رغب فيه أبو الطيب فنرى وصفه للأسد وكيف صنع الممدوح مع هذا الوحش. ولندَعْ ما كان من مدحه فقد عرفنا ذلك في الذي تقدّم من الكلام، قلت:

أمُعفِّرَ الليثِ الهِزَبْرِ بسوطه   لمن ادَّخرت الصارمَ المصقولا

إلى أن قلت:

مُتَخضِّبٌ بدَم الفوارس لابسٌ   في غِيلهِ من لِبْدَتَيهِ غِيلا
ما قوبلَتْ عيناه إلاّ ظُنَّتا   تحتَ الدجى نارَ الفريق حُلولا
يَطأُ الثَرَى مترفِّقاً من تيههِ   فكأنه آسٍ يَجُسُّ عليلا

ويَرُدُّ عُفْرَتَه إلى يَأفوخِه حتى تصيرَ لرأسه إكليلا
وتظنُّه ممّا يُزمجِرُ نفسُه عنها لشدّة غَيظه مشغولا
قَصَرَت مخافتُه الخُطا فكأنّما ركِبَ الكميُّ جوادَه مشكولا
ألقى فريسته وبَرْبَرَ دونها وقرَبْتَ قُرباً خاله تطفيلا
فتشابَهَ الخُلُقانِ في إقدامِهِ وتخالَفا في بَذْلِكَ المأكولا
أسدٌ يَرَى عُضوَيْه فيكَ كليهما مَتْناً أزَلَّ وساعداً مفتولا

قلت:

أحسَنْتَ، أبا الندى، لقد أومأت إلى أن صاحبنا أبا الطيب أحسن القول فجعل القصيدة هيكلاً فنيّاً يشتمل على أجزاء ينظر أحدهما إلى الآخر، بل يكمله، فالمديح محتاج إلى هذه السعة من الوصف الصائب.

وأنت أخي، أبا الطيب، تصدُق ممدوحَك إن أعطاك من الكمال ما يستحق الصدق، غير إن إعجابك قد يشطح بك فتقول ما يشبه الكفر، ألا تراك قلتَ في آخر قصيدتك:

لو كان علمُكَ بالإلهِ مقسَّماً في الناسِ ما بَعَثَ الإلهُ رسولا
لو كان لفظكَ فيهُمُ ما أنزَلَ الـ فُرقانَ والتوراةَ والإنجيلا

أترى أنَّكَ قد فرَّطْتَ؟

قال أبو الندى:

كان بدر بن عمّار أحد الصفوة الذين خصَّهم أبو الطيب بجملة من قصائده، وكان أثيراً لديه، ولا بد أن تثير هذه الصلة الحميمة حسد أولئك الذين يتصلون ببدر بن عمّار، وهم كثر. وهذا يدفعني إلى أن أتلو من شعره نونيته في «بدر» وقد سار إلى الساحل، ولم يسر أبو الطيّب معه. وقد بلغه أن ابن كَرَوّس الأعور قد كتب إلى بدر يقول له: إن أبا الطيّب إنما تخلّف عنك رغبةً بنفسه عن المسير معك. ولما عاد بدر إلى طبريّة ضُربَت له قباب عليها أمثلة تصاوير، فقال أبو الطيب:

الحب ما منَع الكلامَ الألسُنا وألَذُّ شكوَى عاشقٍ ما أعلَنا



قلت:

أحسَنْتَ، أبا الندى، لقد اخترتَ هذه «الخريدة» فأحسنتَ الاختيار. وقد أحسنتَ أبا الطيب في عدّة أبياتك في النسيب، ووصلت منها المديح خير وصول، فلم تُحرَج بما تفرضه عليك القوافي. لقد غلبتَ فجريتَ في يُسْر وسماحة فقلتَ:

أنكرتُ طارقةَ الحوادث مرّةً ثم اعترفتُ بها فصارت دَيْدَنا
وقطعتُ في الدنيا الفلا وركائبي فيها ووَقْتَيَّ الضُحَى والمَوْهِبا
فوقفتُ منها حيث أوقَفَني الندى وبلغتُ من بدر بن عمّار المُنَى
لأبي الحسين جَداً يضيقُ وِعاؤه عنه ولو كان الوعاءُ الأزمنا

وتمضي أبا الطيب في مدحه فتذكر شجاعته وبعضاً من خلاله، وربما تجاوزتَ فيها الحدود.

قال أبو الطيب:

كأنك تومىء إلى قولي:

تتقاصر الأفهامُ عن إدراكِهِ مثلَ الذي الأفلاكُ فيه والدُّنا

ولا أدعكما تقولان فيَّ الأقاويل، وتحسبا أني مع الممدوح أنسى ما اتفق عليه أهل العقل من المسائل.

قال أبو الندى:

أردت أبا الطيّب أن تقطع علينا الطريق، وتصرفنا عن رَبْط هذا البيت بجملة من أقوالك كانت جحداً وإنكاراً بل كفراً.

قلت:

اضرب صفحاً عن هذا الذي خضنا فيه، وارجع إلى تلاوتك، وإني لأذكر أن القصيدة اشتملت على سعة في حيّز المديح، ألم يقل شاعرنا الكبير:

لما قفلتَ من السواحل نحونا قَفَلَتْ إليها وحشةٌ من عندنا

وأقرّ أن هذا من تمام الترحيب الذي كان الممدوح قد أذهب عن الشاعر



الوحشة فكانت إلى «الساحل» الذي غادره الممدوح وقد كانَ ذلك فسحة لأبي الطيب وَجَدَ فيها ما يقوله في ممدوحه:

أَرِجَ الطريقُ فما مَرَرتَ بموضعٍ إلاّ أقامَ به الشَّذا مُسْتوطَنا
لو تعقِلُ الشَجَرُ التي قابلتَها مَدَّتْ مُحَيِّيَةً إليكَ الأغصُنا
سَلَكَتْ تماثيلَ القبابِ الجِنُّ من شوقٍ بها فأَدَرْنَ فيكَ الأعيُنا

لقد وجدت أبا الطيب في الطريق، وفي القباب التي ضربت وعليها تماثيل الجنّ مادة تشيد فيها بالممدوح فأجدت القول وأحسنت الصنعة. ثم عدت إلى وصف «الجياد» التي أقبلت «تخُبُّ بالحلق المضاعَف والقنا».

قال أبو الندى:

لا أقول فاتَك، شيخي، أن تعرض لقول شاعرنا معتذراً:

أضحَى فراقُكَ لي عليهِ عقوبةً ليس الذي قاسيتُ منه هيِّنا
فاغفر فدًى لكَ واحبُنِي من بعدها لتخصَّني بعطيّةٍ منها أنا

قال أبو الطيب:

ويلك، أبا الندى، أردت أن تقول: لقد طلبتَ ندى ممدوحك وأن يخصك به، ولا يشرك به غيرك. وفاتكما أني نبّهت ابن عمار ليكون حذراً من قالة السوء، وأريد بهم ابن كَرَوَّس الذي سعى بيني وبين الممدوح، وذلك في قولي:

وَانْهَ المشيرَ عليكَ فيَّ بضلّةٍ فالحُرُّ مُمتَحَنٌ بأولاد الزِّنَى
وإذا الفَتَى طَرَحَ الكلامَ مُعرِّضاً في مجلسٍ أخَذَ الكلام اللَّذْ عَنَى
ومَكايدُ السُفَهاءِ واقعةٌ بهم وعداوة الشعراءِ بئس الُمقتَنَى
لُعِنَتْ مقارَنَةُ اللئيمِ فإنّها ضيفٌ يجرُّ من الندامة ضَيفَنا

قلت:

عرفت فيها ما كان في نفسك من مرارة أن أحسستَ «بمكايد السفهاء» التي جلبت عليهم «عداوة الشعراء»، كما عرفتُ ذلك «الضيفن» اللئيم....



قال أبو الندى:

ما أظن أننا أبقينا شيئاً في هذه «الخريدة»، وإذا كان ذلك فهل لنا أن ننتقل إلى ميميّة محجّلة هي على كل لسان في عصرنا، يرددها بُلَغاء الكُتّاب كما يرددها الصبية في «الكتّاب».

قلت:

أظنك تعني التي في مدح أبي الحسين علي بن أحمد المرّيّ الخراسانيّ، وكان بينهما مودّة بطبرية، ومطلعها:

لا افتخارٌ إلاّ لمن لا يضامُ مُدركٍ أو محاربٍ لا ينام

قال أبو الندى:

هي تلك التي كان فيها أبو الطيب منصرفاً إلى نفسه يرسل القول المأثور الذي أدرجه بعضهم مدرج الحكمة، وصنّفوا في ذلك مصنفاتهم، قال ـ لا فُضَّ فوه ـ:

ليس عَزْماً ما مَرَّض المرء فيه ليس هَمّاً ما عاقَ عنه الظلامُ
واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيـ ـهِ غِذاءٌ تضوَى به الأجسامُ
ذلَّ من يغبِطُ الذليل بعَيشٍ رُبّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ
كلُّ حِلْمٍ أتَى بغير اقتدارٍ حُجّةٌ لاجىءٌ إليها اللئامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليه ما لجُرحٍ بميّتٍ إيلامُ

وليس هذا ما ينبغي أن نقف عليه في هذا الشطر من القصيدة فقد جاء فيها شيء آخر.

قلت:

نعم، لقد جاء فيها شيء آخر هو أن أبا الطيب نظر إلى نفسه فقال في حماسته المعروفة.

ضاقَ ذرعاً بأن أضيقَ به ذَرْ عاً زماني واستكرمَتْني الكِرامُ
واقفاً تحتَ أخمَصيْ قَدْرِ نفسي واقفاً تحتَ أخمَصيَّ الأنامُ



أقــراراً أَلَــذُّ فــوقَ شَرارٍ ومَــرامــاً أبــغـي وظــلـمـي يُــرامُ

أترى كيف ذهب أبو الطيّب إلى ممدوحه، لقد ذهب بيُسر وحذق صنعة وذلك في قوله:

دونَ أن يَشرَقَ الحـجـازُ ونَـجْـدٌ والـعـراقـان بـالـقـنـا والـشـامُ
شَـرَقَ الجـوُّ بـالـغـبـار إذا سـا رَ عـليُّ بـنُ أحمـدَ الـقـمـقـامُ

ثم ذهب إلى نعته بالنعوت السامية فقال:

الأديبُ المـهـذَّبُ الأصـيَـدُ الضَّرْ بُ الـذكيُّ الجَعْدُ السَّـريُّ الهُمامُ
والـذي ريـب دَهـره مـن أسـارا هُ، ومن حـاسـدي يَـدَيْـهِ الغَـمـامُ

ثم انبرى في مديحه ووصفه بالشجاعة في المواقف التي تتطلب الشجاعة، وهو يصل إلى هذا الوصف بطرائقه المعروفة التي يسلكها فهو يقول:

خـير أعضـائنـا الـرؤوس ولكن فَضَّـلَتْـهـا بـقـصـدك الأقـدامُ

قال أبو الندى:

ولِمَ لم نغض في هذه القصيدة لترى شاعرنا المفلق قائلاً:

قـد لعمـري أقصَرتُ عنكَ وللوَفْـ ـدِ ازدحـامٌ ولـلـعـطايـا ازدحـامُ
خِفتُ إن صِـرتُ في يمينِكَ أنْ تَـأْ خُـذَنّي في هِـبـاتـك الأقـوامُ
ومـن الخـير بُطء سَـيْـبـكَ عـنّي أسـرَعُ السُحْبِ في المسـير الجَهـامُ

قال أبو الطيّب:

ما تفتأ، أبا الندى، تغمز وتلمز، وكأنك وقد أشرت إلى هذه النهاية أردتَ أن تقول: أين هذا المديح وطلبك إلى الممدوح أن يتذكّر سيبَـه الذي تأخر، من فخرك بنفسك الذي سمعناه؟

قال أبو الندى:

لم أرد هذا، وكأنّه ممّا يحيك في نفسك فتظن أن «الأنام» الـذين تحت «أخمَصَيك» يذهبون إلى هذا.

قلت:

على رِسْلِكما ولا يذهبَنَّ أحدُكما في سِرْبِ صاحبه، فنحن إخوة كرام، وصاحب مجلسنا من حقه أن قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسْمَعَتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ

ثم أقول: هل لي أن أفيد من سماحتك فأسألك كيف ختمت حديثك عن السَّيب والعطاء بقولك:

إنّ بعضاً من القريض هُراءٌ ليس شيئاً وبعضه أحكامُ
منه ما يجلُب البراعةُ والفَضْـ ـلُ ومنه ما يجلُبُ البِرسامُ

ما علاقتهما بالحديث عن السَّيْب والعَطاء؟

ذلك ما لم يتّجه لي فيه شيء.

قال أبو الطيب:

لا يعرف البأس إلاّ أهلُه، ولو أنكم أُوتيتُم هذا الشقاء الذي تدعونه شعراً، لكان لكم غير هذا الذي تخوضون فيه ممّا تدعونه «نقداً».

المجلس الخامس

قال أبو الندى:

ما كنت أظنّ أن سأقوَى على المضي إلى مجلسنا هذا، فقد طال بنا مجلس الأمس، وقد أخذ علينا فنُّ أبي الطيب، فرُحنا فيه معجبين، وإن كان أبو الطيب قد سئم مما كنّا فيه، وربما حسبه نقداً لاذعاً.

قلت:

لم يكن أبو الطيب ضيّقَ العَطَن، وهو يدرك ما نحن فيه، وربما كان له أكثر مما عندنا، أنسيت كيف قال في آخر ميميته التي كانت آخر ما شقينا من أمرها:

إن بعضاً من القريض هُراءٌ ليس شيئاً وبعضه أحكامُ

فلا تبتئس بما كان منّا أمسِ، ودع عنك ذاك، وأتل علينا نبأ النونيّة المشهورة التي بدأها بحديثه عن الناس، فذهب في تعنيفهم ولومهم، ثم خلص إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الخطيب الخصيبي، وهو يومئذٍ يتقلد القضاء بأنطاكية.

قال أبو الطيب:

كأنكما لا ترضيان بما كان لي من الشنأة الحسّاد...

قال أبو الندى:

كنت أود أن أتلو النونيّة التي كان لأبي الطيب فيها كلام حادٌّ في الناس، لولا أن شيخي قد أشار إلى أن هذه المسألة تستحق مجلساً خاصاً.



ولكن لا بد لي أن أقول: إن أبا الطيب في أي حَيِّز يدخل فيه في أبواب القريض لا بد أن يرسل القول المأثور الذي يسير مثلاً، ومن ذلك قوله:

لا يُعجِبَنَّ مَضيماً حُسْنُ بزَّته   وهل تروق دفيناً جُودةُ الكَفَنِ

وحديثه في الناس وفي نفسه لا يترك له سعة يتحول فيها إلى ممدوحه الخَصيبيّ فيضفي عليه الصفات الحميدة تتجلى في سماحته وحكمته.

قلت:

فأين أنت عن ميميته في رثاء جدَّته، أترى شاعرنا قد أجاد الرثاء، وماذا يقول شاعرنا لو أنني ذهبت مع الذاهبين إلى القول: إن أبا الطيب قد شغل بنفسه، فلا ينال أحد منه بقدر ما تحظَى منه نفسه؟

قال أبو الطيب:

ما زلتما تومئان إلى قولي في هذه القصيدة:

ولو لم تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ   لكان أباكِ الضَخْمَ كونُكِ لي أمّا
لئن لذَّ يومُ الشامتين بيومها   لقد وَلَدتْ منّي لأنفسهم رَغْما

قلت:

كيف لك أن تنكر، أبا الطيب، ما ذهبتَ إليه، وقولك يثبت هذا الذي رآه فيك غيرُك:

تَغَرَّبَ لا مستعظِماً غيرَ نفسه   ولا قابلاً إلاّ لخالقِه حُكما

قال أبو الندى:

ولكني لم أتل شيئاً من الرثاء الذي يشير إلى صدق في التأثر وحرارة في القول وذلك في قول أبي الطيب:

لكِ اللهُ من مفجوعةٍ بحبيبها   قتيلةِ شَوقٍ غيرِ مُلحِقها وَصْما
أحِنُّ إلى الكأس التي شربت بها   وأهوَى لمثواها الترابَ وما ضمّا

....

ولـو قتـل الهجـرُ المحبـين كـلَّهم مَضَى بلدٌ بـاقٍ أجَـدَّتْ لـه صَرْمـا

. . . .

أتـاهـا كتـابي بعـد يـأسٍ وتَـرْحـةٍ فـماتـت سروراً بي فمِتُّ بهـا غَـمّا

وليس غريباً أن يأسَى أبو الطيب هذا الأسى بعد أن ورد عليه كتاب من جدّته تشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها، فتوجّه نحو العراق، ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك فانحدر إلى بغداد. وكانت جدَّتُه قد يئست منه فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه فقبّلَت كتابه، وحُمَّت لوقتها سروراً به، وغلب الفرح على قلبها فقتلها.

قلت:

فاتك، أبا الندى، أن تشير إلى ما اشتملت عليه هذه المحجَّلة من فن بديع فخراً وحماسة، وما كان يبرز بل يتلألأ في أثنائه من كلمات عذبة هي القول المأثور الذي حفظه أهل الأدب وردده، وهو قول أبي الطيب:

تغـرَّبَ لا مستعـظماً غـير نـفسـه ولا قـابـلاً إلاّ لخـالـقـه حُكـما

ولا سـالكـاً إلاّ فـؤادَ عـجـاجـةٍ ولا واجـداً إلاّ لمـكـرُمـةٍ طَـعْـما

يقـولـون لي مـا أنتَ في كـل بلدةٍ وما تبتغي؟ ما أبتغي جَلَّ أن يُسْمَى

. . . .

ومـا الجمع بـين الماء والنـار في يدي بـأصعب من أنْ أجمَعَ الجَدَّ والفهـما

قال أبو الندى:

وفاتني أيضاً أن أتلو الأبيات الأخيرة التي استعظمها الناس عليه وهي:

وإني لمـن قـومٍ كـأنّ نـفـوسَـهـم بهـا أنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما

كـذا أنـا يـا دنيـا إذا شئتِ فـاذهبي ويـا نفسُ زيدي في كـرائهِها قُـدْمـا

فـلا عَبَـرتْ بي سـاعـةٌ لا تُعـزّني ولا صَحِبتْني مُهجـة تقبـلُ الـظلما

قال أبو الطيب:

إني لأحسبك، أبا الندى، من صَحبيَ الأغلَيْنَ، فكيف لك أن تنال مني فتشايع الشَنَأةَ الحُسّاد الذين تَقوّلوا في قولي:

وإني لمن قوم كأنّ نفوسَهُمْ بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللحم والعظما

لقد ادَّخرتكما عوناً لي فكيف يكون ذلك؟

قلت:

لا عليك، أبا الطيب، ونحن معك، والذي يبدو لنا في شعرك هو العسل المصفّى والسلسل العذب واللآلئ الحسان.

قال أبو الندى:

وهل لي أن أتلو لامية أبي الطيّب في مدح القاضي أبي الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسين الأنطاكي.

قلت:

ولِمَ لا، فصاحبنا قد خلص لهذه الصفوة التي عرفتها بلاد الشام، و«انطاكية» هذه تتردد في شعره، وقد عرفنا غير واحد من الأنطاكيين من ممدوحي شاعرنا.

وقد جرى في مدحه على نحو ما كان له في قصائد عدة. لقد بدأها كعادته بنبذة من النسيب. ثم خلص إلى الممدوح، فكان هذا الكريم المعطاء الذي كانت طرق أبي الطيب إليه «ممطورة» بجوده، وهو «علاّمة العلماء» و«اللجّ الذي لا ينتهي». . . .

ولكني لم أرض بناء بيت في هذا المديح، ولم يكن عدم رضاي متأثراً بما قال فيه أهل اللسن والبلاغة، وهو:

جَفَخَتْ وهم لا يَجْفَخون بها بهم شيمٌ على الحَسَب الأغرِّ دلائل

«فالشيم قد فخرت بهم، وهم لا يفخرون بها، وهي دلائل على حَسَبه «الأغر» قال أهل اللسن، وهل من حاجة تدعو إلى الفعل «جفخ»، ولو استبدل به الفعل «فخر» أو نحوه لتحقق الغرض، ثم ما هذا التعقيد في البناء «بها بهم»؟

لا أدري ما يقول أبو الطيب؟



قال أبو الطيب:

صحيح أن البناء لم يخل من التعقيد، ولكن هذا لغة الشعر، ومنه لدى الفحول من شعراء العربية الكثير، ألم يقل الفرزدق:

وكـلُّ رفيقَيْ كـلِّ رَحْـلٍ وإنْ هما   تعـاطَى القَنَا قَـومـاهمـا أخـوانِ

ثم أليس لي أن أجتلب شيئاً من الغريب وأمنحه الحياة؟

قال أبو الندى:

وكأنك، أبا الطيب، قد حذَّرتَ ممدوحك مما تشكو منه من خُلُق الناس وحسدهم فمضيت قائلاً:

يـا أفخَـرْ فـإن النـاس فيـك ثـلاثـةٌ   مستَعـظِمٌ أو حـاسـدٌ أو جـاهـلُ

ثم جَرَيت كدأبك تقابل صنعتك في المديح بأخرى تفخر فيها بنفسك، «فأنت الهزبْر الباسل»، وهذا مما ردَّدته في فخرك غير مرة، فأنت الشجاع الذي عرفته الليالي، وتجشَّم السُّرى فيها وقابل أعداءه واشتجرت فوقه السهام فقلتَ:

وصـرتُ إذا أصـابـتْـني سـهـام   تكسرت النـصـال عـلى النـصـالِ

ولكنك زدت في فخرك فتذكَّرتَ أنـكَ شاعـر العربيـة طوال العصور فقلت:

مـا نـال أهـلُ الجـاهليّـة كلُّهُم   شعـري ولا سَمِعتَ بسحري بـابلُ

وحذَّرت الممدوح بقولك الذي ردده بعدك الناس الذين ما أحسنتَ إليهم فقلتَ:

وإذا أتتـكَ مـذمّتي من نـاقصٍ   فـهي الـشـهـادةُ لي بـأني كـامـلُ
مَن لي بفَهم أُهَـيـلِ عَصْرٍ يـدَّعي   أن يَحسُبَ الهـنـديَّ فيـهم بـاقـلُ

قلت:

هل لك، أبا الندى، أن نتحول عما نحن فيه إلى شيء آخر من هـذا الباب الواسع الذي حُبس على المديح، ولنعرض لقوله في «أنطاكيّ» آخر هو أبو



سهيل سعيد بن عبيد الله بن الحسن، وأظن ذلك في نونية لم تنل من الحفاوة ما نالته جياد أبي الطيّب، تلك التي مطلعها:

قد علَّمَ البينُ منّا البينَ أجفانا تَدْمَى وألَّفَ في ذا القلب أحزانا

قال أبو الندى:

وأيّ شيءٍ فيها وغيرها مما عرضنا له أو سنعرض يغني عنها. وإذا كان ذلك فهل أعود لتائيّة كنا قد جئنا على بيت منها في مجلس سابق، ونحن نذكر ما شطح به أبو الطيب. تلك التي مدح بها أبا أيّوب أحمد بن عمران التي مطلعها:

سِرْبٌ محاسنهُ حُرِمتَ ذواتِها داني الصفاتِ بعيدُ موصوفاتِها

قلت:

ذاك حَسَن، ودَعْ ما كان فيها من شطحاته وعُدْ إلى قوله الذي ذكرناه من محاسنه، وكان بعض ما اصطلح عليه أهل البلاغة وأدرجوه في باب «التشبيه الضمني» وهو:

كَرَمٌ تبيَّن في صفاتك ماثلاً ويَبينُ عِتْقُ الخيل من أصواتِها

وأبو الطيب شاعر أتقن صنعته، فهو يتخذ من كل مسألة في الممدوح، أو تعرض له كالحمَّى وسيلة ينفذ منها إلى سعة في القول، وهو يقول:

لا نعذُل المَرَضَ الذي بك شائق أنت الرجال وشائقٌ عِلاّتِها
فإذا نَوَتْ سَفَراً إليكَ سَبَقْتَها فأضَفْتَ قبلَ مُضافها حالاتِها
ومنازلُ الحُمَّى الجسومُ فقل لنا ما عذرُها في تركها خيراتِها
أعجَبْتَها شَرَفاً فطالَ وقوفُها لتأمُّلِ الأعضاء لا لأذاتِها

. . . .

حقُّ الكواكب أن تعودَكَ من عَلٍ وتعودُكَ الآسادُ من غاباتها
والجنُّ من سُتُراتها والوحشُ من فَلَواتِها والطير من وُكناتِها
ذُكِرَ الأنامُ لنا فكانَ قصيدةً كنتَ البديعَ الفَرْدَ من أبياتِها

قال أبو الندى:

لقد أحسنتَ ووفيتَ بما كان لك أن تدركه، ولكن قل لي: هل كان من أدوات المديح أن تستعير لها مصطلحات النحو والصرف فتقول: «فأضفتَ قبل مُضافها حالاتها» فجئت بالمضاف والحال؟ وقد أفادني في ذلك شيخي، وذكَّرني بما كان منه في قصيدة من «سيفيّاتك» التي قلتَ فيها:

إذا كان ما تَنوْيه فعلاً مضارعاً   مَضَى قبل أن تُلقَى عليه الجوازمُ

قلت:

فأين أنت، أبا الندى، عن رائية شهيرة كنا قد عرضنا لها فكأننا خبطنا في معركة حامية الوطيس، شهدنا من طعن أبي الطيب وشجاعته وإقدامه ما حملنا على عدّ القصيدة من فخره وحماسته وليس المديح فيها إلا تتمة، وممدوحه أنطاكيّ آخر هو علي بن أحمد بن عامر الأنطاكيّ.

كأنك، أبا الطيّب، قد استشاط فيك سُعار من غضب فدخلت حومة قصيدتك تجمع لها أفراد أدواتك في الطعن والحزم والإقدام فقلت:

أُطاعِنُ خيلاً من فوارسها الدهر   وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبرُ
وأشجَعُ منّي كلَّ يومٍ سلامتي   وما ثبتَتْ إلاّ وفي نفسها أمرُ
تَمرَّستُ بالآفاتِ حتى تركتُها   تقول أماتَ المَوتُ أم ذُعِرَ الذُعْرُ
وأقدمتُ إقدامَ الأتيِّ كأنَّ لي   سوى مهجتي أو كان لي عندها وِترُ
ذَرِ النفسَ تأخُذْ وُسْعَها قبلَ بَيْنها   فمفترق جارانِ دارُهُما العمْرُ
ولا تَحسَبَنَّ المجدَ زِقّاً وقينةً   فما المجدُ إلاّ السيفُ والفتكة البِكرُ
وتضريب أعناق الملوك وأن تُرَى   لكَ الهَبواتُ السُودُ والعسكَرُ المَجْرُ
وتركُكَ في الدنيا دَوِيّاً كأنّما   تداوَلَ سمعَ المرءِ أنمُلُه العَشْرُ

قال أبو الطيب:

كأنك سعدتَ بهذه القصيدة فأفضتَ في ذكرها.

وأنا أقرُّك على ما ذهبت إليه من أن الفخر والحماسة هي غرضي الأول.



قال أبو الندى:

ليس في هذا شك، فقد جعلت من المجد «تضريب أعناق الملوك» فأيّ شيء تركت للمدوح، أأَبْعَدْتَ صاحبك عن الملوك، وأنت قد منحتَ هذا اللقب إلى ممدوحين غيره لم يكونوا ملوكاً، ألم تقل لكافور:

تَـرَعْـرَعَ الملك الأستـاذ مكتَهـلاً قبـل اكتهالٍ أديبـاً قبـل تـأديبِ

وقد كان من إحسانك في القصيدة إرسالك الكلم النوابغ التي صارت مما يستشهد به كقولك:

ومن يُنفقِ السـاعـات في جمع مـالـهِ مخـافـةَ فَقْـرٍ فـالـذي فَعَلَ الفقـرُ

ثم سلكتَ إلى الممدوح طريقاً جعلته ميدانَ حماستك وفخرك إلى أن قلت:

وغيثٍ ظَنَنّـا تحتَـه أن عـامـراً عـلا لم يمُتْ أو في السحاب لـه قَبْرُ
أو ابْنَ ابنِه البـاقي عـليَّ بنَ أحمـدٍ يجودُ بـه لـو لم أجُـزْ ويَـدي صِفْـرُ

قلت:

هل لك في بائية شاعرنا في عليّ بن محمد بن سيّار بن مكرَّم التميميّ التي مطلعها:

ضروبُ النـاس عشّـاقٌ ضُروبـا فـأعـذرُهـم أشَفُّهُـمْ حبيـبـا

قال أبو الندى:

ليس فيها شيء، ونظائرها كثر، ولنتجاوزها إلى أخرى نشقق فيها القول فتبدو لنا فوائد من ذلك. ولتكن داليّته في الممدوح نفسه التي مطلعها:

أقـلُّ فَـعـالي بَـلْهَ أكـثره مَجْـدُ وذا الجِدُّ فيه نِلتُ أم لم أَنـل جَـدُّ
سـأطلُبُ حقّي بـالقنـا ومشـايـخٍ كـأنّهم من طـول مـا التَثَموا مُـرْد

قلت:

على مَهْلِكَ، أبا الندى، إذا كان هذا هو الذي يطلب أبو الطيّب ويسعى



إليه، فما بقي لممدوحه؟

وقد أحب أبو الطيب شعره حتى جعله من موادّه المفضلة، وحتى شجع النقّاد بل الحساد أن يتقوّلوا فيه فيقولوا على لسانه أنه ادّعى النبوة فطُلب إليه أن يأتي بمعجزة لأنّ لكل نبيٍّ معجزة فقال: دونكموها في قولي:

ومن نَكَدَ الدنيا على الحرّ أن يَرى عدوّاً له ما مِن صداقته بُدُّ

وقد ذهب قوم إلى أن الذي يطلبه من حقه هو الخلافة التي كان آل عليّ قد جعلوها حقهم المسلوب.

قال أبو الندى:

وعجيب أنك في شعر أبي الطيب تلقى فيه شواهد البلاغة والعربية فقد وقفت على أقواله مع الشداة فاستظهرنا شواهد البلاغة، ومنها قوله:

فلم أرَ قبلي من مَشَى البحرُ نحوَه ولا رجلاً قامت تعانقُه الأُسدُ

قلت:

وأنت لا بد لك أن تدرج أبا الطيّب مع النقاد العلماء في العربية، فهو من أهل المعرفة بالشعر، ومن أجل ذلك يعرِّض بساقة المتشاعرين أصحاب النظم فيقول:

ومن الناس من تجوز عليهم شُعَراءٌ كأنّها الخازبازِ

والخازباز صوت الذباب ثم غلب على الذباب.

ويَرَى أنّه البصيرُ بهذا وهو في العُمْيِ ضائع العُكّازِ

وهذان البيتان من قصيدة في مدح أبي بكر علي بن صالح الروذباري الكاتب. وهو القائل:

وأصبح شعري منهما في مكانه وفي عُنُق الحسناء يُستَحْسَنُ العِقْدُ

والإشارة إلى علي وابنه الممدوح الحسين بن علي الهمذانيّ.

قال أبو الندى:



وإني لألمح في بعض شعره إعراباً عن حقه وانتماءً إلى أهله وقومه، وكأنه من ذؤابة الأسرة العلوية.

قال أبو الطيب:

كأنك تشير إلى قولي في مدح أبي القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي:

كذا الفاطميّون الندى في بنانهم ... أعَزُّ امّحاءً من خطوط الرواجبِ
أناس إذا لاقَوا عِدًى فكأنّما ... سلاحُ الذي لاقوا غُبارُ السَّلاهبِ

....

إذا عَلَويٌّ لم يكن مثل طاهرٍ ... فما هو إلا حُجّةٌ للنواصبِ

قلت:

صدقتَ، أبا الطيب، لقد حسن ظنّ أبي الندى فيك، وعندي أن «النواصب» من الكلم الشيعي ينبزون به من ناوأهم، وسلب حقّ آل بيت عليّ. وإلى هذا يشير أبو الطيّب بقوله:

هو ابنُ رسول اللهِ وابنُ وصيِّه ... وشِبْهُهُما شَبَّهتُ بعد التجارب

قال أبو الندى:

عرضنا غير مرة لكَلِم أبي الطيب المأثور الذي ردّده أهل الأدب واشتملت عليه مظانهم، وهو يرسله متخذاً المناسبة الطارئة مجالاً للقول، فقال وقد كُبِسَت أنطاكية وهو فيها فقتل الطخرور وأمّه:

إذا غامَرْتَ في شرفٍ مَرومِ ... فلا تقنَعْ بما دون النجومِ
فطَعْمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ ... كطعم الموتِ في أمرٍ عظيم

....

....

يرى الجبناءُ أنّ العجزَ عقلٌ ... وتلك خديعةُ الطبعِ اللئيمِ
وكلُّ شجاعةٍ في المرء تغني ... ولا مثل الشجاعة في الحكيمِ

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخُذُ الآذان منه   على قدر القرائح والعلومِ

أقول: هذه مناسبة أرسل فيها القول كلماً مأثوراً دل على تجربة ودرس.

قلت:

فما تقول، أبا الندى، في قصيدة أبي الطيب في مدح أبي العشائر الحسن ابن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدويّ.

قال أبو الندى:

تريد القافيّة من «الخفيف»؟

قلت:

نعم، هي تلك التي مطلعها:

أتُراها لكثرةِ العشّاقِ   تحسَبُ الدمعَ خِلْقةً في المآقي

قال أبو الطيب:

هي إحدى كرائمي، ولا أستطيع أن أوثر واحدة على أخرى.

نعم قد يكون لي عناية وخصوصية في بعض منها، وذلك أمر فرضته عليَّ الأحداث الثقال.

قال أبو الندى:

ليكن لنا في غيرها، وهنَّ كثر، ما يكون من الباقيات الصالحات. أترى في الشينيّة بعض حاجة لنا؟

قلت:

هي كغيرها في مقدّمة المديح، ولكن ربما وقفتَ على شيء خاص في المديح، ذلك أن أبا الطيّب دعا ممدوحه فقال:

فيا بَحْرَ البحور ولا أورّي   ويا ملكَ الملوكِ ولا أُحاشي

قال أبو الطيب:

أيُجرَى قولي هذا على ملق ونفاق أم يحسب حساب الجدّ، وأبو الفوارس ممن شهد لهم التاريخ، وكان لهم فيه مكان؟

قال أبو الندى:

مهما طال بنا المقام فلا بد من شيء نجعله مسك الختام، وهو أن نستمع لاميّة أبي الطيّب، وقد كانت ذات نغم جميل في ممدوحه أبي العشائر، وفيها ما فيها مما يجدر بنا الوقوف عليه.

قلت:

أظنك تريد السهلة المحبّبة التي أفتخر فيها وجاء مطلعها:

لا تحسَبوا ربعَكم ولا طَلَلَهْ أوّلَ حيٍّ فراقكم قَتَلَهْ

قال أبو الطيب:

كأنك صرفتَها إلى فخري وحماستي لقولي فيها:

أنا ابنُ مَنْ بعضُه يفوقُ أبا الباحثِ والنَّجْلُ مَنْ نَجَلَهْ
وإنما يَذكُرُ الجدودَ لهم مَن نَفَروه وانفدوا حِيَلَهْ

قلت:

والله لقد نَفرتَهم بفخرك وما غلبوك، ولأنت ابن بَجْدَتِها. ولكن غَلَبَتْ عليك حماستك فنسيتَ صاحبك الممدوح أبا العشائر إلا بعد اثني عشر بيتاً كنت فيها صاحب القِدْح المعلّى.

لقد قلت في فخرك وزهوك:

فخراً لعَضبٍ أروحُ مُشتَمِلَهْ وسَمْهَريٍّ أروحُ مُعتقِلَهْ

وسموت في فخرك وزهوك فقلت:

وليفخَرِ الفخْرُ إذ غدَوتُ به مُرتَدياً خَيْرَه ومُنتَعِلَهْ
أنا الذي بيَّن الإلهُ به الـ أقدارَ والمرءُ حيثما جَعَلَهْ

على رسلك أبا الطيّب، أليس هذا وغيره مثله أو أكثر منه هو الذي حفز



خصومك أن يخوضوا فيه ويجعلوك من الجاحدين؟

قال أبو الندى:

كأن هذا الذي كان من أبي الطيّب جُلّ القصيدة، ثم يأتي المديح وهو على حسن الصنعة فيه، ليس شيئاً مع هذا الذي سمعناه من فخره وحماسته.

ولأبي الطيّب في ممدوحه أبي العشائر كلمات أخرى، منها مقطوعة بدأها بقوله:

النـاسُ مـا لم يَـرَوك أشـبـاهُ ... والـدهـرُ لـفظٌ وأنت مـعـنـاه

قالها وهو يودع صاحبه أبا العشائر الذي غادره في سفر.

وقال في مقطوعة أخرى:

لامَ أنـاسٌ أبـا الـعـشـائـر في ... جُـودِ يَـدَيْـه بـالـعَـيْنِ والـوَرِقِ
وإنمـا قـيـلَ لِمَ خُـلِقْـتَ كـذا ... وخـالـق الخَـلْقِ خـالـقُ الخُـلُقِ

ويحسُن بي أن آتي على مقطوعة أخرى قالها فيه وقد غضب عليه، فأرسلَ غلماناً له ليوقعوا بأبي الطيّب، بظاهر حلب ليلاً، فرماه أحدهم بسهم، وقال: خذه وأنا غلام أبي العشائر، فقال شاعرنا:

ومُـنْـتَـسِبٍ عـنـدي إلى مَـن أحبُّـه ... ولـلنَّبْـلِ حـولي من يَـدَيْـهِ حفيفُ
فهيَّجَ من شَـوقي ومـا من مَـذَلّـةٍ ... حَـنَـنـتُ ولـكـنّ الـكـريـمَ ألـوفُ
وكـلُّ ودادٍ لا يـدومُ عـلى الأذَىَ ... دوامَ ودادي لـلحُـسَـين ضـعـيـفُ

. . . .

ونـفسي لـه نفسي الفِداء لـنفـسـه ... ولـكـنّ بـعضَ المـالـكـين عـنـيـفُ
فـإن كـان يبغي قتلَهـا يـكُ قـاتـلاً ... بكفَّيْـهِ فـالقـتْـلُ الشريفُ شريـفُ

قلت:

أحسنت، أبا الطيب، لقد سموتَ في خُلُقك، فلم تقابل نزعة للشر صدرت من صاحبك الممدوح بمثلها، بل جازيتَه بالكلم الرقيق، وذلك أمضى

سلاح يحزّ في قلب ممدوحك. ولولا خشيتنا من إطالة الجلوس، وأنك ربما لحقك منه نصيب لآثرنا أن نباشر «السيفيّات» المحجّلة، وهي فرائدك التي كتب لها البقاء.

وإلى مجلس قادم.

المجلس السادس

قال أبو الندى:

لقد حان موعدنا للذهاب إلى مجلس أبي الطيب، وهو في انتظارنا من غير شك. وسيكون معي الليلة قصائده السيفية وشيء آخر إن سمح به الوقت.

قلت:

وهذا ما أعددته أنا أيضاً، وهكذا كنا في مجلس أبي الطيب فقلت له: هل لك أن تسمع ما قلته في سيف الدولة؟

قال أبو الطيّب:

وليكن ما قلته فيه عند منصرفه من الظفر بحصن برزَوَيه، وعودته إلى أنطاكية، وقد جَلَس في «فازة»، وهي مظلة بعمودَين، من الديباج عليها صورة ملك الروم، وصور وحش وحيوان، وكان ذلك في شهر جُمادَى الأولى سنة ٣٣٧ هـ.

قال أبو الندى:

نعم هي الميميّة البارعة الّتي اجتمع فيها الوصف لهذا المجلس الفخيم، والمديح لسيف الدولة بن حمدان.

وقد سنَحَتْ منه لحظات انصرف فيها إلى عواطفه فقال في نسيب تجاوز طابَع «المقدمات»:

وفاؤكُما كالرَّبْع أشجاه طاسِمُهْ   بأنْ تُسعدا والدمعُ أشفاهُ ساجِمُهْ

قلت:

أحسنتَ، أبا الندى، في هذه القطعة من النسيب ورد قول أبي الطيب الذي حفظناه قبل أن نعرف القصيدة، وهو:

بَلِيتُ بِلَى الأطلالِ إن لم أقفْ بها وقوفَ شحيحٍ ضاع في التُرْبِ خاتمُهْ

وقد خلص من نسيبه إلى وصف «الفازة» فقال:

وما خَضَبَ الناسُ البياضَ لأنّه قبيحٌ ولكن أحسَن الشَّعْر فاحِمُهْ
وأحسَن من ماءِ الشبيبة كلِّهِ حَيَا بارقٍ في فازةٍ أنا شائمُهْ
عليها رياضٌ لم تحُكْها سحابةٌ وأغصانُ دَوحٍ لم تُغَنِّ حمائمُهْ
. . . .
تَرَى حيوانَ البَرِّ مصطلِحاً به يُحاربُ ضِدٌّ ضدَّه ويسالِمُه
إذا ضربته الريح ماجَ كأنّه تجول مَذاكيهِ وتدْأى ضَراغِمُهْ
وفي صورة الروميِّ ذي التاج ذلةٌ لأبلَجَ لا تيجانَ إلاّ عمائمُهْ
تقبِّل أفواهُ الملوكِ بساطَهُ ويَكبُرُ عنها كُمُّهُ وبَراجِمُهْ

ثم مضى في مديحه، فماذا يقول في سيف الدولة الأمير الشجاع صاحب المعارك المشهورة مع الروم. وقد استطاع أبو الطيب أن يتخذ من مواد المديح هذه صنعة فنية بارعة.

ومن هذا ما قاله فيه وقد عزم على الرحيل عن انطاكية:

أيـن أزمعـتَ أيّهـذا الهمـامُ نحن نَبتُ الرُبَى وأنت الغمامُ

قال أبو الندى:

لو لم يكن في هذه القصيدة إلا قول شاعرنا:

وإذا كانت النفوس كباراً تعِبَتْ في مرادها الأجسامُ

لكان هذا وحده قصيدة أيّ قصيدة.

وكأن صلات أبي الطيب مع ممدوحيه كانت صلات حميمة حظي فيها

شاعرنا بما لم يحظ غيره، ولذا كثر أعداؤه وحُسّادُه فهو ما ينِي يشير إليهم ويغيظهم ويكبُتهم.

لقد قال أبو الطيب قصيدة عند رحيل سيف الدولة عن انطاكية مطلعها:

رُوَيدَكَ أيّها الملكُ الهُمامُ تَأنَّ وعُدَّهُ ممّا تُنيلُ
وجودَكَ بالمُقامِ ولو قليلاً فما فيما تجود به قليلُ
لأكبُتَ حاسداً وأرى عدوّاً كأنّهما وداعُك والرحيلُ

قلت:

لقد خَلَص أبو الطيب لسيف الدولة حتى صار شاعره الأول وجليسه ورفيقه في مقامه وفي سفره. شهد معه المعارك في الثغور والعواصم، وقاتل ووقف وصمد، وكان له في كل ذلك شعر كثير. واختص به، لا يترك أمراً لسيف الدولة إلا كان له فيه شعر.

وماتت أمّ سيف الدولة فقال يرثي ويعزّي في لامية من عيون شعره، مطلعها:

نُعِدُّ المشرفيةَ والعوالي وتقتلُنا المنونُ بلا قتالِ

قال أبو الندى:

وقد تعجب أن ترى أبا الطيب وهو في مقام الرثاء يلتفت إلى نفسه فيتحدث عنها على طريقته في حماسته، قال:

ونرتبط السوابقَ مُقرَباتٍ وما يُنجينَ من خَبَب الليالي
ومن لم يعشَقِ الدنيا قديماً ولكن لا سبيلَ إلى الوصالِ

قال أبو الطيب:

أتنكر عليَّ أن أقول ذلك، ثم ألا تنظر في أفكاري التي بدأتها من البيت الرابع فتجد أنها سبيل إلى الدخول في الرثاء، وهي في قولي:



نصيبُـكَ في حيـاتـكَ مـن حبيبٍ نصيبُـك في مَنـامـكَ مـن خيـالِ
رمـاني الـدهـرُ بـالأرزاءِ حـتى فـؤادي في غِـشـاءٍ مـن نِـبـالِ
فـصِـرْتُ إذا أصـابَـتْـني سهـامٌ تكسَّـرَتِ النصـالُ عـلى النصـالِ
وهـانَ فـما أُبـالي بـالـرزايـا لأنّي مـا انـتـفَـعْـتُ بـأنْ أبـالي

ألا ترى أن هذا ليس جافياً عمّا يأتي بعده وهو:

كـأنَّ المـوتَ لم يُـفْـجَـع بـنـفـسٍ ولم يَخْـطُـرْ لمـخـلـوقٍ بـبـالِ
صـلاةُ اللهِ خـالـقِـنـا حَـنـوطٌ عـلى الـوجـه المكفَّنِ بـالجَمـالِ

قلت:

أحسَنتَ، أبـا الطيب، المقـال، وليس لي إلا أن أقول: أَخَـذَ القوسَ باريها.

وقلت راثياً:

ولـو كـانَ النسـاء كمن فَقَـدْنـا لفُضِّـلَتِ النسـاءُ عـلى الـرجـالِ

وهـذا حسن، فما بـالك تـذهب، وأنت ترثي، إلى المصطلح اللغوي النحوي فتجعله من مادة رثائك كما في قولك:

ومـا التـأنيث لاسم الشمس عـيبٌ ولا الـتـذكـير فـخـرٌ لـلهـلال

وهذا يذكّرني بما مرّ بنا من قولك في أحد ممدوحيك:

فـإذا نَـوَتْ سَفَـراً إليـكَ سَبَقتَهـا فـأَضَفْتَ قبل مُضـافِها حـالاتِها

وكأنك أشرتَ باستعمال المصطلح النحوي إلى مسألة نحوية هي الفصل بين المضاف والمضاف إليه، ما أبعد هذا عن الديباجة المليحة التي حفل بها شعر أبي الطيّب.

ولكن ذلك مغتفر لك لقولك في آخر بيت:

فـإنْ تـفُـق الأنـامَ وأنـتَ مـنهـم فـإنَّ المِـسْـكَ بـعضُ دم الـغـزالِ



وما أظن البلاغيين قد فطنوا لهذه الصنعة، واكتفوا بإدراج البيت في التشبيه الضمني.

قال أبو الندى:

وهل لكما في لاميته التي مدح فيها سيف الدولة وذكر استنقاذه لأبي وائل تغلب بن داود بن حمدان العدويّ من أسر الخارجيّ، التي مطلعها:

إلامَ طَماعيَةُ العاذلِ ولا رأيَ في الحبِّ للعاقلِ

ثم يقول:

يُرادُ من القلب نِسيانُكُم وتأبَى الطِباعُ على الناقل

ثم خلص إلى سيف الدولة بعد عدة أبيات من النسيب فوصف نهوضه لاستنقاذ أبي وائل، ووصف الجحفل والخيل، وما يتصل بذلك من لوازم المعركة.

قلت:

لقد ذكَّرتَني، أبا الندى، وأنت في تلاوتك ببعض أبيات لم تكن في تلاوتك تتصل بالخيل جاء فيها:

شَفَنَّ لخَمسٍ إلى مَن طَلَبْنَ قُبَيْلَ الشفون إلى نازلِ
فدانت مرافِقُهُنَّ الثرى على ثقة بالدمِ الغاسل

هذا جيد وحسن، ولكن أيكون من تمامه أن تشفعه بقول بعيد عن مقتضى الحال، وهو:

وما بين كاذَتَيِ المستغير كما بين كاذَتَيِ البائلِ

أيوجَّه مثل هذا إلى الأمير سيف الدولة الذي نعتَّه ملكاً في بعض قولك؟

قال أبو الطيب:

وأيّ شيء في هذا إن كان وجه التشبيه متوفّراً؟

قلت:

إذا كنت ترضى بذاك فكيف تقول في آخر القصيدة:

فذي الدار أخونُ من مومسٍ وأخدَعُ من كِفَّةِ الحابلِ

أيجوز أن يقال هذا في قصيدة تنشد في حضرة أمير كبير. إن هذا مشوب بما لا يحسن من الأدب.

قال أبو الندى:

أراك أغلظتَ القول لأبي الطيّب، وأخذتَ عليه هَفَوات، وقد علمت أن الشعراء أمراء الكلام، وأن ما يشطحون فيه مغتفر ولهم منا نحن النقّاد بعض السماح والرخصة.

فإن لم ترض قول أبي الطيب وذكر المومس في قصيدة المديح فسترضى ممن فتح أبو الطيب لهم الباب، فقال أحد هؤلاء في رثاء أمّه:

وطبائع الدنيا طبائع مومسٍ للمنع آونةً وللإعطاء

وأنا أقول: لقد أفسد رثاءه وأساء إلى أمّه فأساء إلى نفسه.

قال أبو الطيّب:

أحسَنْتَ، أبا الندى، وأجَدْتَ القول.

قال أبو الندى:

ومن شعر أبي الطيب في سيف الدولة قصيدتان، لاميته التي قالها عند مسير سيف الدولة لنصرة أخيه ناصر الدولة لما قصده معز الدولة بن الحسين الديلمي إلى الموصل، وذلك سنة ٣٣٧، ورائيته التي قالها يمدحه وقد سأله أن يسير معه لما سار لنصرة أخيه ناصر الدولة.

وكلاهما دخل أبو الطيب في مادته متوجهاً إلى الممدوح وكفى نفسه مؤونة ما يشقى به من النسيب.

قلت:

كأنك، أبا الندى، قد نظرتَ إلى مسيرتنا فوجدتَها طويلة فرحتَ تقلّل من مراحلها.

و«سيفيات» أبي الطيب تؤلف بعض ديوان، ألم يرث أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة بحلب، وقد توفيّ بميّافارقين بقصيدة من أحسن ما يكون أدب الرثاء ومطلعها:

بنا منكَ فوق الرمل ما بكَ في الرملِ وهذا الذي يُضني كذاكَ الذي يُبلي

توجّه فيها إلى سيف الدولة معزياً أحرَّ العزاء.

وله في سيف الدولة لامية مطلعها:

لا الحلم جادَ به ولا بمثاله لولا ادّكارُ وداعه وزِيالِهِ

وله فيه قافيّة معروفة مطلعها:

أيدري الربعُ أيَّ دمٍ أراقا وأيَّ قلوبِ هذا الركب شاقا

وقد كان له فيها بعد النسيب فخر وصل منه إلى سيف الدولة.

قال أبو الندى:

لم أرد أن أتجشَّم الطريق فأمرَّ فيه مرور العجلان، وإني لأعرف أن شعر أبي الطيب في سيف الدولة يؤلف ديواناً. وهل أنسى داليته التي مدحه بها ورثى أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان وقد توفّي في حمص، ومطلعها:

ما سَدِكَتْ عِلّة بمورود أكرمَ من تغلِبَ بنِ داودِ

وهي التي قال فيها مخاطباً:

يا أكرم الأكرمين يا مَلِك الأملاكِ طرّاً يا أصيدَ الصِيدِ



وكيف أغضي عن ميميّة له في مدحه، وكان قد أمر سيف الدولة غلمانه أن يلبسوا وقصد ميّافارقين ليزور قبر والدته، ومطلعها:

إذا كـان مـدح فـالنسيبُ المقـدَّمُ أكـلُّ فصيـحٍ قـال شعـراً متيَّم

وقد جاء فيها:

لَحُـبُّ ابـنِ عـبـدالله أولَى فـإنّـه بـه يُبْـدَأُ الـذكـرُ الجميـلُ ويُخْتَمُ

ثم مضى في طريقته في المديح عارضاً لما اتصف به سيف الدولة من خلال حميدة: شجاعة وإقدام ورأي سديد في سلمه وحربه، وجود غمر لا يضاهيه فيه أحد مع وصف جميل لمعاركه ينفذ فيه إلى دقائق الأحداث.

قلت:

لا عليك، أبا الندى، ألم تَرَ أن أبا الطيب حين ينسجم مع صنعته، ويرى مادته غنية وافرة يبتعد عن كلامه في النسيب.

قال أبو الطيب:

هو ذاك، إن الحديث عن سيف الدولة كثيرفهو مسعر حرب وهو جواد يباري الريح كرماً، فأنى لهذا النسيب الذي يأخذ مني حاجتي ويصرفني إلى غيرها؟

قلت:

لقد أحسنتَ المديح وأحسنتَ التعليل والإعراب عن قصدك في قصيدة أخرى مدحت فيها صاحبك.

قال أبو الندى:

أي قصيدة عنيت فهنّ كُثر؟

قلت:

حسبتُ أنّك تدرك الإشارات، لقد قلت: أحسنتَ التعليل، فأنا أقصد لاميّة شاعرنا التي مدح فيها سيف الدولة، وكان قد ضُرِبَت له خيمة عظيمة



فهبّت ريح شديدة فسقطت فقال أبو الطيّب:

أيقدَحُ في الخيمةِ العُذَّلُ وتشمَلُ من دهرها يشمَلُ
تضيقُ بشخصكَ أرجاؤها ويركُضُ في الواحد الجَحْفَلُ
وكيف تقوم على راحةٍ كأنَّ البحارَ لها أنمُلُ
فليتَ وقارَكَ فرَّقتَه وحمَّلْتَ أرضكَ ما تحمِلُ
فصار الأنامُ به سادةً وسُدْتَهُمُ بالذي يفضُلُ
رأت لونَ وجهكَ في لونها كلونِ الغزالةِ لا يُغسَلُ

....

فلا تُنكرنَّ لها صَرْعةً فمن فَرَح النفسِ ما يقتُلُ

....

ولما أمَرْتَ بتطنيبها أُشيعَ بأنَّك لا ترحَلُ
فما اعتَمَدَ اللهُ تقويضَها ولكنْ أشارَ بما تفعَلُ

فهل رأيت أحسن من هذه الصنعة، تطرأ حادثة فيتأتّى لها أبو الطيب بحذقه فيكون من ذلك أدب رفيع.

قال أبو الطيب:

لو أحسنتَ التعليل كما أحسنتُه أنا. وإنك لناقد جهبذ، وهل يفوت عليك العَيْن والصَّرْف، من البَهْرَج والزَّيْف؟

قال أبو االندى:

لقد شغل سيف الدولة بالروم، فكان ذلك نصراً للمسلمين، وسعادة لنا نحن الذين تطربنا الكلمة الطيبة، ولنا من ذلك جيميّته التي قالها وقد صفَّ سيف الدولة الجيش في منزل يُعرَف بالسنبوس، ودونكها:

لهذا اليوم بعد غدٍ أريجُ ونارٌ في العدوِّ لها أجيجُ
تبيتُ بها الحواضِنُ آمناتٍ وتسلَمُ في مسالكها الحجيجُ
عرفتُكَ والصفوفُ معبَّآتٌ وأنتَ بغير سيفكَ لا تعيجُ

....

أبـالغَمَـراتِ تـوعِـدُنـا النصـارى ونـحـنُ نـجـومُـهـا وهـي الـبُـروجُ
وفـيـنـا الـسـيـفُ حَمْلتُـه صـدوقٌ إذا لاقَـى وغـارتـه لَجـوجُ

قلت:

وأين أنت من عينيته التي بدأها بنغمة فخر تحول منها سريعاً إلى مدح سيف الدولة ووصف مآثره وأشار إلى ما لقيَه «الدمستَق» في المعركة من إذلال، ومطلعها:

غـيري بـأكـثرِ هـذا النـاس يَنْخَـدِعُ إنْ قـاتلوا جَبُنوا أو حـدَّثـوا شَجُعـوا

وقد ختمها أحسنَ ما يكون الختام فقال:

إنّ الســلاحَ جميــعُ النــاسِ تحمـلُهُ وليسَ كـلُّ ذوات المِخْـلَبِ السَّبُـعُ

قال أبو الندى:

لو جازَ لي أن أقول: إن في شعر أبي الطيب في سيف الدولة تاريخاً لأيامه وحروبه ما عدِمت الصواب، بله ما كان فيها من أدب وفن رفيع. لقد كانت نونية من قصائده سجلاً لمعركة، فقد عـزم سيف الدولـة على لقـاء الروم في «السنبوس» سنة ٣٤٠ هـ، وقد بلغه أن العدوّ في أربعين ألفاً فَتَهَيَّبهم أصحابه، فأنشدَ أبو الطيّب:

نــزور ديــاراً مــا نحبُّ لهــا مَغْنَى ونســأل فيهـا غـيرَ سـاكنهـا الإِذْنـا

وقد أنشد داليّته حين أراد سيف الدولة أن يقصد «خَرْشنة» فعاقه الثلج عن ذلك فقال:

عــواذلُ ذاتِ الخَــال فيَّ حــواسِــدُ وإن ضَجيــعَ الخَـوْدِ منّي لمــاجِــد

وكان له في هذه الديباجة كلُّ كلمة طيبة تنسجم في أدبه وتفصح عمّا في قلبه:

أهُـمُّ بشيءٍ والـلـيــالي كـأنها تُـطاردني عــن كـونــهِ وأُطــارِد
وحيـدٌ من الخُـلاّن في كـل بـلدةٍ إذا عَـظُمَ المطلوبُ قـلَّ المساعِـدُ



ثم كان من هذا النسج المحكم شطر المديح من القصيدة.

ومن هذه القصائد التي سجلت الأدب الرفيع مع الفائدة التاريخية قصيدته البائية التي مدح فيها سيف الدولة وذكر بناءه لمرعش في المحرّم سنة ٣٤١ هـ، ومطلعها:

فدَيناكَ من رَبْعٍ وإنْ زدتَنا كَرْباً فإنَّك كنتَ الشرقَ للشمسِ والغربا
وكيف عَرَفْنا رَسْمَ من لم يَدَعْ لنا فؤاداً لعِرْفانِ الرسومِ ولا لُبّا
نَزَلنا عن الأكوارِ نمشي كرامةً لِمَنْ بانَ عنه أن نُلِمَّ به رَكْبا

قلت:

أراك أطلتَ، أبا الندى، كأنك أردت أن تعتذرَ عمّا بَدَرَ منك.

قال أبو الطيب:

لم يكن شيء من ذلك، فأبو الندى عَيْبة علم وظرف أدَب، كيف لا، وهو غرس يَدَيك؟

قلت:

لقد ذكّرني قولك، أبا الطيّب، : «نَزَلْنا عن الأكوار نمشي كرامةً» بقول الحسن بن هاني:

وإذا المَطيُّ بنا بَلَغْنَ محمّداً فظهورُهن على الرجال حرامُ

قال أبو الطيب:

وليس هذا ملك أبي نواس، وشعراء العربية قد غَبَرُوا على هذا الكلام الحسن، قال غيلان ذو الرمة:

تمامُ الحجِّ أن تقفَ المطايا على خَرْقاءَ واضعةَ اللثامِ

قلت:

وما أجمل قولك فيها:

فيا شوقُ ما أبْقَى ويا لي من النَوى ويا دمعُ ما أجرَى ويا قلبُ ما أصْبَى



لقد لعِبَ البين المُشِتُّ بها وبي | وزوَّدني في السيرِ ما زَوَّدَ الضَّبَّا
ومن تكنِ الأسْدُ الضواري جُدودَه | يكنْ ليلُه صُبْحاً ومَطْعَمُه غَصْبا
ولستُ أُبالي بعد إدراكيَ العُلَى | أكانَ تُراثاً ما تناولتُ أم كَسْبا

إلى أن تصل في يُسْر وتُؤدة إلى الممدوح فتقول فيه فيما تقول:

عليمٌ بأسرار الديانات واللُّغَى | له خَطَرات تفضَحُ الناسَ والكُتُبا

وفي هذا عرفنا ما كان من كمال سيف الدولة ما خلا الطعن والقتال.

قال أبو الندى:

وأين نحن من الميمية التي قالها في عتاب سيف الدولة وقد جرى لصاحبنا خطاب مع قوم متشاعرين وظَنَّ الحَيْفُ عليه والتحامل، وكان لها من مطلعها وكلماتها شهرة أيّ شهرة:

واحرَّ قلباه ممّن قلبه شَبِمُ | ومن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ
ما لي أكتِّمُ حبّاً قد بَرَى جَسَدي | وتَدَّعي حُبَّ سيف الدولة الأُمَمُ

وتوجّه إلى صاحبه بعتابٍ رقيق فقال:

أعيذُها نَظَراتٍ منكَ صادقةً | أن تحسَبَ الشَّحْمَ فيمن شَحمُهُ وَرَمُ

ثم صعد به الغضب فقال:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظِرِهِ | إذا استَوَت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

ثم عاد إلى نفسه عود الواثق من مجده وكماله فقال:

أنام ملءَ جفوني عن شواردِها | ويَسهَرُ الخَلْقُ جَرّاها ويختَصِمُ

وقسا على المتشاعرين فقال:

وجاهلٍ مدَّه في جهلِهِ ضَحِكي | حتى أتَتْه يَدٌ فرّاسة وفَمُ
إذا رأيتَ نُيوبَ الليثِ بارزةً | فلا تظُنَّنَ أنّ الليثَ يبتسِمُ

إلى أن يقول:

ما أبعَدَ العيبَ والنقصانَ عن شَرَفي | أنا الثُّريّا وذانِ الشيْبُ والهَرَمُ

ثم قال:

بـأيِّ لفْظٍ تقـول الشعـرَ زِعْنِفَـةٌ تجـوز عنـدكَ لا عُـرْبٌ ولا عَجَـمُ

قلت:

ما أرَقَّه من عتاب وما أقساه، وما ترجو من عتاب يجود به أبو الطيّب؟

وعتابه هذا قد كان له في نفس سيف الدولة مكان، وهل يُفـرّط هذا الممدوح الكريم بهذه الألمعيّة الفريدة. وقد كان منه أن سَعَى إلى مَرْضاته فعاد شاعرنا يقول في مدحه في قصيدة مطلعها:

أجابَ دمعي وما الداعي سِوَى طَلَلِ دعـا فلبّاه قبـل الـرَّكْبِ والإبِلِ

وهي التي جاء فيها مما نحفظه ونردده:

لأن حـلمَـكَ حِلْم لا تَـكَـلَّفُـه ليس التكَحُّل في العَيْنينِ كـالكَحَـلِ

قال أبو الندى:

لقد أشرت إلى القيمة التاريخية في مديح أبي الطيب لسيف الدولة، وها هو في لاميّة فيه يأتي على ذكر الأمكنة والبلاد ويشير إلى قسطنطين ملك الروم في قصيدته التي مطلعها:

لـيـاليَّ بعـد الـظاعـنـين شُكـولُ طِـوالٌ وليـل العـاشقـين طـويـلُ

وفيها يذكر «هِنزيط» و«سِمنين» و«سُمَيساط» قلت:

وله مع سيف الدولة مواقف قال فيها مقطوعات عدة وقصائد أخرى، كأن يعوده في مرضه فيقول، وأن يشفى من مرضه فيقول في كـل ذلك أبـو الطيب أدباً غضّاً. وتمر مناسبة كعيد الفطر أو عيد الأضحى فيكون ذلك مما يدعوه أن يقول في مدحه وتهنئته.

ومن هذه قصيدته في تهنئته بعيد الأضحى التي مطلعها:

لكـل امـرئٍ من دَهـرِه مـا تعـوَّدا وعادةُ سيفِ الدولةِ الطعنُ في العِدَى



وقد عَرَّض فيها بقُسطنطين ملك الروم فقال:

ومــا طَـلَبَتْ زُرْقُ الأسنَّـةِ غيـرَهُ ولكنَّ قُسطنطينَ كـان لـه الفِـدَى

قال أبو الندى:

كنت أستظهر أبياتاً من هذه القصيدة ولا أدري مكانها من هذه القصيدة، وهي:

هـو الجَدُّ حتى تفضُـلُ العيـنُ أختَهـا وحتى يكـون اليومُ لليـومِ سيِّـدا

. . . .

ومن يجعـل الضرغـامَ للصيـد بـازَه تَـصَيَّـده الضِرغـامُ فيـما تصيَّـدا

. . . .

ومـا قَتَـلَ الأحـرارَ كـالعفـو عنهُمُ ومن لـك بـالحرِّ الـذي يحفَظُ اليدا

إذا أنتَ أكـرمتَ الكـريم مَـلَكتَـه وإنْ أنـتَ أكـرمْـتَ الـلئيـمَ تَمَرَّدا

ووضعُ النَدى في موضع السيف بالعلى مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

ثم افتخر فقال:

ومـا الـدهـرُ إلاّ من رُواة قصـائـدي إذا قلتُ شعراً أصبَحَ الـدهرُ مُنشـدا

قلت:

لله درُّك، أبـا الطيب: لقـد أدركتَ أنّ الدهـرَ وأبناء الـدهر من رواة قصائدك، وكان لك ذلك.

وما لك، أبا الندى، قد تجاوزت القافية الغزلة المحبّبة، ألم يأت فيها على ما كان لسيف الدولة من عظمة، وقد أشار فيها أبو الطيب إلى رسول ملك الروم فقال:

وقـد سـار في مَسراك منهـا رسولُـهُ فـما سـار إلاّ فـوقَ هـامٍ مُـفـلَّقِ

. . . .

. . . .

ولو تلوت ما كان فيها من نسيب لوقفتَ فيه على حبّ مَكين، وهي التي



مطلعها الذي أشرنا إليه:

لعَيْنَيْـكِ مــا يَلْقَى الفؤادُ ومــا لقِي   وللحبِّ مــا لم يبقَ منّي ومــا بَقِـي

قال أبو الندى:

لقد أكثر أبو الطيّب قوله في ممدوحه سيف الـدولة، ولا سيـما علاقتـه بالروم. لقد دخل عليه رسول ملك الروم فكان من أبي الطيب قصيدتان سجل فيهما ما كان من هذه الحادثة، ومدح فيهما ممدوحه. ومطلع الأولى:

ظُلْمٌ لـذا اليـومِ وصفٌ قبـل رؤيتـهِ   لا يصدق الوصف حتى يصدق النَّظَرُ

ومطلع الثانية:

دروع لملك الـروم هـذي الـرسـائـلُ   يَـرُدّ بهـا عـن نفسـه ويشـاغـلُ

ولم يكن في هاتين القصيدتين أيّ نسيب، بل باشر ما أراد أن يقوله.

قلت:

ولأبي الطيّب قصائد في سيف الدولة في وقائعه مع غـير الروم، ومن ذلك: أن بني كلاب قد أحدثـوا حدثـاً بنواحي بـالس، فسار سيف الـدولة خلفهم، وأبو الطيب معه، فأدركهم بعد ليلة بين ماءين يُعرَفـان بالغبّـارات والخرّارات، فأوقَع بهم وملك الحريم، فـأبقى عليه، فقـال أبو الـطيب بعد رجـوعه من هـذه الغزوة، وأنشـده إياهـا في جُمادَى الأخـرى سنة ٣٤٣ هـ، ومطلعها:

بـغَيـركَ راعبـاً عَبِـثَ الـذئـابُ   وغـيـرَكَ صـارمـاً ثَـلَمَ الضِرابُ

ثم قال:

وتَمْـلِكُ أنـفُسَ الـثَّقَـلَينِ طُـرّاً   فـكيـفَ تحوز أنـفسَهـا كـلابُ

ثم قال:

يهُـزُّ الجيشُ حـولـك جـانبَيْـه   كـما نَفضَتْ جَنـاحَيْهـا العُقـابُ
تُـكـفـكِفُ عـنهـم صُـمَّ الـعـوالي   وقـد شَـرِقَتْ بـظُعنِهمِ الشِّعـابُ



وأسـقِطَتِ الأجنّـةُ في الـولايـا　　وأُجهِضَتِ الحـوائـلُ والسِّقـابُ
وعـمـرو في ميـامِـنِهِمْ عُـمُـورٌ　　وكَـعْـبٌ في مَـيـاسرهـم كِـعـابُ

وعمرو وكعب قبليتان تفرَّقتا ذات اليمين وذات الشمال. ثم مضى في وصف ما دار في المعركة.

وأين أنت، أبا الندى، عن ميمية مشهورة ردّدها أهل الأدب وجمهرة الدارسين مدح فيها أبو الطيب سيف الدولة وذكر بناء ثغر الحَدَث سنة ٣٤٣ هـ، ومطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم　　وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وقال فيها:

يكلِّف سيفُ الدولة الجيش همَّه　　وقد عَجِزَت عنه الجيوش الخَضارم

إلى أن يقول:

هل «الحَدَثُ» الحمراءُ تعرفُ لونَها　　وتعلمُ أيُّ الساقيَيْن الغمائم
سَقَتْها الغمامُ الغُرُّ قبلَ نزولِهِ　　فلمّا دَنَا منها سَقَتْها الجَماجِمُ
بناها فأعلَى والقَنا يقرَعُ القنا　　ومَوْجُ المنايا حولَها متلاطِمُ
وكان بها مثلُ الجُنونِ فأصبحَتْ　　ومن جثث القَتْلَى عليها تمائمُ

إلى أن يقول:

أتوكَ يجرُّون الحديدَ كأنّما　　سَرَوا بجيادٍ ما لَهُنَّ قوائمُ
إذا بَرَقوا لم تُعرَف البيضُ منهم　　ثيابُهُمُ من مثلِها والعمائمُ
خميس بشرق الأرض والغرب زحفُهُ　　وفي أُذُنِ الجَوْزاءِ منه زَمازِمُ
. . . .　　. . . . .
وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ　　كأنك في جَفْنِ الردَى وهو نائِمُ

قال أبو الندى:

أراك أُعجِبتَ بالقصيدة، والذي لم تذكره منها كثير، وفيها شذرات لامعة من أمتع ما ورثنا من أدب الحرب، عرض فيها للدمستق قائد الروم وما كان



من هزيمته، ولكنّكَ أَغضَيتَ عن شيء من عادتك أن تشير إليه.

قال أبو الطيب:

كأنك، أبا الندى، تغمزني في قولك، ألم ترد أن تقول: أين قولك:

تجـاوَزْتَ مقـدار الشجـاعـة والنُّهى إلى قــول قـومٍ أنت بـالغيب عـالِمُ

وكـأنك أردت أن تقـول: أنت القائـل وقد عـودتنا أن تـأتي بهـذا في شطحاتِك.

وإلى مجلس قادم نستأنف فيه ما بقي من هذا المعين الثَّرِّ.

المجلس السابع

قال أبو الندى:

أتنشط، شيخي الجليل، فنستأنف الذهاب إلى مجلس شاعرنا؟

قلت:

ولِمَ لا... فقد بقي لنا قدر ليس باليسير من شعر صاحبنا في سيف الدولة.

قال أبو الندى:

لو كان لنا أن نؤلف كتاباً في بعض شعره، لكان لنا منه كتاب ضخم في شعره وصلته بسيف الدولة.

فهل لكما أن أتلو ميميّته التي قالها ـ وقد ورد فرسان الثغور ومعهم رسول ملك الروم يطلب الهدنة وأنشدها سيف الدولة بحضرتهم وقت دخولهم لثلاث عشرة بقين من المحرّم سنة أربع وأربعين وثلاث مئة، ومطلعها:

أَرَاعَ كذا كلَّ الأنام هُمامُ وسَحَّ له رُسْلُ الملوك غَمامُ

....

إذا زارَ سيف الدولةِ الرومَ غازياً كفاها لِمامٌ لو كفاه لِمامُ

....

وما تنفعُ الخيلُ الكرامُ ولا القَنا إذا لم يكن فوق الكرامِ كِرامُ

وقد أشار فيها إلى خضوع الروم:

كتائب جاؤوا خاضعين فأقدموا ولو لم يكونوا خاضعينَ لحاموا

قلت:

هذه كغيرها من شعره في سيف الدولة، لقد منحه الممدوح سعة في القول، ولكننا نحفظ من قافيته الأبيات الحسان ومطلعها:

تذكَّرْتُ ما بين العُذَيْبِ وبارقِ مَجَرَّ عَوالينا ومَجرَى السوابقِ
وصُحبَةَ قومٍ يذبحونَ قنيصَهم بفضلة ما قد كسّروا في المفارق
وليلاً توسَّدْنا الثَويَّةَ تحته كأنَّ ثراها عنبرٌ في المرافق
بلادٌ إذا زار الحسانَ بغيرها حَصَى تُرْبِها ثقَّبْنَه للمخانِقِ
سقتني بها القُطْرُبُّليَّ مليحةٌ على كاذبٍ من وَعْدِها ضوءُ صادقِ

قال أبو الطيب:

أدركت سبب اختيارك لهذه القطعة، كأنّك غَمَزْتني لابتعادي عن موطني، فلم تجد له أثراً في شعري، وكأنك أيضاً تقول: ما بال أبي الطيب يذكر «العذيب» و«بارق» وصحبه في تلك الأمكنة، والثوية، وهي موضع أيضاً بقرب الكوفة، ويذكر «قطربل» وهو موضع بالعراق تنسب إليه الخمر. ما باله ذكر هذا كله، وابتعد عن الديار التي اتخذها وطناً له من بلاد الشام!

قلت:

لم أرد والله هذا، ولا خطر لي ببال، ولكنها مسألة تحيك في نفسك فتحنّ إلى أهلك ومثواك، وإن لم تصرّح بذلك في شعرك، بل كان منك غير هذا، ألستَ القائل:

«وكلُّ مكانٍ يُنبتُ العزَّ طيِّبُ».

قال أبو الندى:

لقد قطع علينا أبو الطيب ما كنا فيه من عذوبة هذه القصيدة وإن كان فيها شيء لا نرتضيه لشاعرنا أبي الطيب، ألم يكن فيها قوله:

وأغيدُ يَهْوَى نفسَه كلُّ عاقلٍ عفيفٍ ويَهْوَى جِسْمَه كلُّ فاسقِ



إني لأجِّل شاعر العربية عن هذا.

أديبٌ إذا مـا جَسَّ أوتـارَ مِـزْهَـرٍ بَـلا كُلَّ سَمْعٍ عن سِواهـا بعـائقِ
يُحَـدِّثُ عـمّا بـين عـادٍ وبـيـنـه وصُـدْغـاه في خـدَّيْ غـلامٍ مـراهقِ

قلت:

على رِسْلكَ، أبا الندى، ما تفتأ تُغضب أبا محسَّد بكَلِمِكَ في غَمْزٍ ولمَزْ، ألم تتلُ من قصيدته هذه قوله:

ومـا الحسن في وَجْه الفتى شرفاً لـه إذا لم يـكـن في فِـعـلِه والخـلائـقِ
ومـا بَـلَدُ الإنسـان غـيرُ المـوافـق ولا أهـلهُ الأدنَـونَ غـيرُ الأصـادِقِ

إلى أن يقول مشيراً إلى القبائل التي تمـردّت على سيف الـدولة فمضى يقاتلها، وكان له ذلك فقد أخضعها ودانت له:

أرادوا «عليّاً» بالـذي يُعجز الـوَرَى ويـوسع قتـلَ الجحفـل المتضـايقِ

لقد قاتلهم بعد أن كان أحسن إليهم:

ولـمّا كسـا كَعْبـاً ثيابـاً طَغَـوا بهـا رَمَى كـلَّ ثـوبٍ من سِنـانٍ بخـارقِ

قال أبو الندى:
ليس لي من هذه القصيدة العامرة إلاّ قوله:

ومـلـمـومـةٌ سـيـفـيّـةٌ رَبَـعـيَّـةٌ يصيح الحَصَى فيهـا صياحَ اللقـالِقِ

قال أبو الطيب:
أصَبتَها، أبا الندى، أشايعتَ أصحابك الحُسّادَ من أهل النقد فغَمَزْتَني بقولي «اللقالق»؟

قال أبو الندى:

لم أرد هـذا، ولكني أردت أني كنت أجهـل مـواطن الجـمال في هـذه القصيدة، وليس لي منها إلا ما كنا قد قرأناه في كتب الدرس أيّام الطلب.

قلت:





ومثل هذه القصيدة كانت رائيته التي وصف فيها إيقاع سيف الدولة بالقبائل في نواحي الفرات والخابور، ولم يحضر أبو الطيب الواقعة ولكن الممدوح شرحها له فكان ما جاء في هذه الرائية التي مطلعها:

طِوال قناً تُطاعنُها قِصارُ   وقَطْرُكَ في ندًى ووغًى بحارُ

وقد جاء فيها وصف إيقاعه بالمتمردين وكسر شوكتهم وإخضاعهم، وعودتهم إلى الطاعة صاغرين.

قال أبو الندى:

ومن دلائل إخلاص شاعرنا لممدوحه أنه رثى الذين تُوفّوا من أسرته، وها هو يرثي أخت سيف الدولة الصغرى فيقول:

إنْ يكنْ صبرُ ذي الرزيئةِ فضلا   تكنِ الأفضَلَ الأعَزَّ الأجَلاّ

فقد رثاها وأثنى على كرم محتدها وعزّى أخاها عزاءً جميلاً.

قلت:

وكان كعادته، فلم تنسه المصيبة إرسال الحكمة والقول المأثور فقد قال:

ولذيذُ الحياةِ أنفَسُ في النّفـ   ـسِ وأشهَى من أن يُمَلَّ وأحلَى
وإذا الشيخ قال أُفٍّ فما مَلَّ   حياةً وإنّما الضَّعْفَ مَلاّ
آلةُ العيشِ صحّةٌ وشبابٌ   فإذا وَلَّيا عن المرءِ وَلّى
أبداً تَسْتَرِدُّ ما تَهَبُ الدنيا   فيا ليتَ جودَها كانَ بُخْلا

قال أبو الندى:

لقد مَنَحَتْ سيرة سيف الدولة شاعرنا مادةً للقول، فقد قال يمدحه ويذكر نهوضه إلى ثغر «الحَدَث» لّما بلغه أن الروم قد أحاطت به وذلك في جُمادى الأولى سنة ٣٤٤ هـ في قصيدته التي مطلعها:

ذي المعالي فَلْيَعْلُوَنْ من تَعالى   هكذا هكذا وإلاّ فلا لا
شَرَفٌ ينطِحُ النجومَ برَوْقيه   وعزٌّ يُقَلْقِلُ الأجبالا
حالُ أعدائنا عظيم وسيفُ الدولةِ   ابنُ السيوفِ أعظمُ حالا



قلت:

صدَقْتَ، أبا الندى، إن شعر أبي الطيب في سيف الدولة يؤلف ديواناً خاصّاً، وها هي نونيّته إحدى فرائده في سيف الدولة، خَلَص فيها لفَنّه فعزَفَ عن «مقدماته» فابتدأها قائلاً:

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ ... هو أوّلٌ وهي المَحَلّ الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ حُرّةٍ ... بَلَغَت من العلياءِ كلّ مكانِ

. . . .

لولا العقولُ لكانَ أدنى ضَيغَمٍ ... أدنى إلى شَرَفٍ من الإنسانِ

ثم مضى في مدح سيف الدولة، وقد أنشده إيّاها بآمِد وكان منصرفاً من بلاد الروم وذلك في صَفَر سنة ٣٤٥ هـ.

وقال في آخرها:

إن السيوفَ مع الذين قلوبُهم ... كقُلوبهنّ إذا التقى الجَمعانِ
تلقَى الحسامَ على جَراءة حدِّهِ ... مثلَ الجبانِ بكفِّ كلِّ جبانِ

قال أبو الندى:

وكتاب أبي الطيب مع سيف الدولة ذو شجون، فشؤون سيف الدولة مشكلات جمّة، ولا بدّ لها من موقف أبي الطيب. لقد تُحدِّث بحضرة سيف الدولة أن البطريق أقسمَ عند ملكه أن يعارض سيف الدولة في الدرب وسأله أن ينجده بطارقته وعَدده، ففَعَل فخاب ظنّه. وفي هذا قال أبو الطيب سنة ٣٤٥ هـ وأنشدها سيف الدولة، وهي آخر ما أنشده بحلب:

عُقْبَى اليمين على عُقبَى الوَغَى نَدَمُ ... ماذا يزيدكَ في إقدامِك القَسَمُ

والخطاب إلى البطريق.

وفي اليمين على ما أنتَ واعدُهُ ... ما دلَّ أنّك في الميعادِ مُتَّهَمُ
آلى الفتَى ابنُ شُمَشْقيقٍ فأحنَثَهُ ... فتًى من الضربِ تُنْسَى عنده الكَلِمُ

. . . .

أينَ البطاريقُ والحَلْف الذي حَلَفوا ... بمَفْرِقِ المَلْكِ والزعمُ الذي زَعَموا



ثم يمضي في وصف الحرب وما كان من نصر الجيش الظافر، وهزيمة الروم بكذب خَلْفهم وخَوَر عزيمتهم.

والقصيدة طويلة محجّلة، وفيها من استغراق أدب الحرب مادة جليلة، وقد ختمها بقوله فكان مسك الختام:

لا تَطلُبَنَّ كريماً بعدَ رؤيتهِ إنَّ الكرامَ بأسخاهم يداً خُتِموا
ولا تُبال بشِعْرٍ بعدَ شاعره قد أُفْسِدَ القولُ حتى أحمِدَ الصَممُ

ومن مشاهد سيف الدولة إيقاعه بعمرو بن حابس وبني ضَبَّة سنة ٣٢١ هـ، وقد قال في ذلك أبو الطيّب:

ذكر الصِّبا ومَراتع الآرامِ جَلَبَت حِمامي قبلَ وقتِ حمامي

ثم مضى في نبذة من النسيب خلص منها إلى الممدوح، وما كان من مواقفه ومآثره وشجاعته إلى أن عرَّج على عمرو بن حابس فقال:

مَهْلاً ألا للهِ ما صَنَعَ القَنَا في «عمرو حابِ» و«ضَبَّةَ» الأغتامِ

وكان في ختامه:

صلّى الإلهُ عليكَ غيرَ مُودَّعٍ وسَقَى ثَرَى أبَويكَ صوْبَ غمامِ

قلتُ:

وكانت لأبي الطيب لاميّة خاصة، وخصوصيتها تأتي من أن سيف الدولة قد أنفذ ابنه من حلب إلى الكوفة ومعه هدية، وكان ذلك بعد خروج أبي الطيّب من مصرِ وفراقه لكافور، فمضى أبو الطيب في مدحه، وكتب بها إليه من الكوفة سنة ٣٥٢ هـ فقال:

ما لَنا كلُّنا جَوٍ يا رسولُ أنا أهوَى وقلبكَ المتبولُ

ومضى في نسيب حزين قال فيما قال منه:

وصلينا نصِلْك في هذه الدنيا فإن اُلمقامَ فيها قليلُ

كأنّك، أبا الطيب، موشك على الرحيل.

وليس لي إلاّ أن أمضي في تلاوتي، فالكلم جميل يأخذ بمجامع القلب، وقد نسيت به أني في «مقدمّة» من مقدّماتك:

إنْ تَـرَيْني أَدِمْتُ بعدَ بياضٍ   فحميدٌ من القناة الذبولُ

إلى أن قلتَ:

نحن أدْرَى وقد سألنا بنَجْدٍ   أطويل طريقنا أم يطولُ

وأشهد أنك خَلَصْتَ إلى صاحبك بصنعة صاحب فنّ يملِك أدوات لم تتهيَّأ لغيرك من الشعراء:

كلَّما رحَّبَت بنا الأرضُ قلنا   حَلَبٌ قصدُنا وأنتِ السبيلُ

وكيف لي ألاّ أتلو قولك:

ما الذي عنده تدار المنايا   كالذي عنده تُدارُ الشَمولُ

قال أبو الندى:

ألم نقرأ منذ ليال قصيدة شاعرنا في رثاء أخت سيف الدولة التي توفيت بميّافارقين، وقد ورد خبرها إلى الكوفة فقال فيها:

يا أختَ خير أخٍ يا بنتَ خيرِ أبِ   كنايةً بهما عن أشرف النَسَب
أجِلُّ قدْرَكِ أنْ تُسْمَي مُؤبَّنَةً   ومن يَصِفْكِ فقد سمّاكِ للعَرَبِ

ألم نقرأ هذا الرثاء المؤلم فنتذكر ما جرى للصاحب بن عبّاد حين توفيت أخته فوَرَدَتْه الرسائل مؤبّنة يرثي بها أصحابها الفقيدة فيبدأون رثاءهم بقول أبي الطيّب في رثاء أخت سيف الدولة:

طَوَى الجزيرةَ حتى جاءني خَبَرٌ   فزعت فيه بآمالي إلى الكذِبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقُه أمَلاً   شَرِقْتُ بالدمعِ حتى كادَ يَشْرَقُ بي

فحزن الصاحب فوق حزنه لهذه الرسائل التي استشهد أصحابها بقول خصم من خصومه وهو شاعرنا المفلق.



وهي التي قال فيها:

أرَى العراقَ طويـل الليل مـذ نُعِيَتْ   فكيف ليـل فتى الفتيـان في حَـلَبِ
يـظُنّ أنّ فـؤادي غـير مُـلتـهـب   وأنَّ دمـعَ جفـوني غـير مُنسكِـبِ
بَـلَى وحُـرْمـةِ مَنْ كـانتْ مُـراعيةً   لحُـرْمـةِ المجـدِ والقُـصّـادِ والأدبِ

إلى أن يقول:

وإن تكن خُلِقَت أنثى لقـد خُلِقَتْ   كـريمـةً غـيرَ أنثى العقـل والحَسَبِ

لله درّك ما أقساك على المرأة وأنت في مقام رثاء امرأة جليلة.

ثم عُدْتَ فقلت:

وإنْ تكنْ تغلِبُ الغَلْبـاءُ عُـنصرَهـا   فـإنّ في الخمـر معنًى ليس في العِنَبِ

قلت:

وأين أنتَ عن شاهد أهل اللسَن والبلاغة في قوله:

فليتَ طـالعـةَ الشمسَـيْنِ غـائبـةٌ   وليتَ غـائبـة الشَمسَـيْن لم تَـغِبِ

ولعل سيف الدولة من ممدوحي صاحبنا الواضح المبرِّز بينهم، الذي كان شاعرنا شديد الاحتفاء بما يقوله فيه، وذلك آية إخلاص ومحبّة. وقد يكون مما استظهر على هذا ما كان من سيف الدولة حين أنفذ إليه كتاباً بخطّه يسأله المسير إليه من الكوفة، فأجابه بقصيدة وأنفذها إليه في ميّافارقين، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٣٥٣ هـ ومطلعها:

فـهِـمتُ الـكـتـابَ أبَـرَّ الـكُـتُـبْ   فـسَـمْـعـاً لأمـر أمـير الـعَـرَبْ
وطَـوعـاً لـه وابـتـهـاجـاً بـه   وإن قصَّرَ الـفـعـلُ عـمّا وَجَـبْ

وكان فيها من المديح والإشارات إلى خلال الممدوح الكريمة والفوائد التاريخية التي تتصل بحربه مع الروم، ما يغنَى به الناقد والأديب والمؤرّخ.

وإلى مجلس قادم يطالعنا فيه شاعرنا بشعره في ممدوحه الإخشيديّ.

المجلس الثامن

قال أبو الندى:

لا أدري أيكون مجلسنا الليلة شقيّاً بكافور أم سعيداً بفرائد شاعرنا الكبير الذي مسح على سواد الكافور مسحة من الفضل فكان «أبا المسك»؟

قال أبو الطيب:

آمل أن يتحقق لكما في هذا المجلس ما تصبوان إليه، ولا يفسد عليكما «أبو المسك»؟ ولا« الملك الأستاذ» سعادتكما.

قلت:

لقد أحسن أبو الطيب في كنيته التي كنّى بها كافوراً، فقد ردّ الاسم إلى حقيقته، وهي السواد، ورأى أن أدب العربية وكرم العرب في إطلاق أحسن الأسماء وأرقها وأشدّها لمعاناً على إمائهم وعبيدهم، فكان من ذلك: الياقوت واللؤلؤ والجوهر والمرجان والكافور ونحو هذا. يقابل ذلك إطلاقهم أشدّ الأسماء وأقساها وأوحشها على أبنائهم بغية أن يكونوا أشدّاء على أعدائهم، فكان من ذلك: حجر وصَفْوان وجبل وليث وهِزَبْر ونمر وذئب ونحو هذا.

وليس في ذهاب أبي الطيب في كنيته لكافور «أبي المسك» ما ينافي أدب العربية.

قال أبو الطيب:

كأنكما تقولان كيف جاز لك أن تمدحه فتسخو عليه في النعوت، ثم تعود تهجوه فتنبزه بأقسى ما يكون من التعزير والتحقير؟



قلت:

لا، لم يكن لديّ شيء من هذا ولكن شعرك في كافور يختزن في مطاويه مرارة وألماً، ولعل في ذلك خيبة أملٍ وإخفاق راج.

وأنا أقول: أيّ رجاء ترجوه، وقد حظيت من ممدوحك ابن حمدان الثراء العريض؟

قال أبو الطيب:

كأنك تقول: لقد أردت شيئاً غير هذا الذي يشقى به الشعراء، وهو الكسب، وأنت تومىء إلى قولي:

إذا لم تُـنِطْ بي ضيـعـةً أو ولايـةً فجـودُك يكسـوني ومـالـك يُسلَبُ

قلت:

لم أرد هذا، ولكنك لـمَّا كنتَ البادىء في الدخول إلى الصِّيال، كان ذلك عوناً لي أن أصارحك بالذي ما كنتُ أرضاه لك، وهو أن تقف من هذا الخصيّ الأسود الذي جعلتَه «أبا المسك»، فتقول له:

أبا المسكِ هل في الكأس فضل أناله فـإنّي أُغنِّي منـذ حـينٍ وتشـربُ

أيقول هذا من قال وهو يقابل نفسه فيأسَى ويشجُع:

ولا تَحسَبَنَّ المـجـدَ زِقّـاً وقَيْـنـةً فما المجد إلا السيف والفَتْكـةُ البِكْرُ
وتضريب أعنـاق المـلوك وأن تُـرى لـكَ الهَبوات السودُ والعسكرُ المَجْـرُ
وتـركُـكَ في الـدنيا دَويّـاً كـأنَّمـا تـداولَ سـمـعَ المـرءِ أَنْمُلُهُ الـعَشْرُ

ولا تحسَبَنّي، أبا الطيب، من بعض حسّادك، فقد والله كرهتهم وما دنوت من سِرْبهم، وصاولتهم وكنتُ معهم ألدّ المخاصمين.

قال أبو الندى:

أرانا قد ذهبنا بعيداً ولم نلتمس حاجتنا، فما تقولان في اليائية الشهيرة التي مطلعها:



كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا　　وحَسْبُ المنايا أنْ يكُنَّ أمانيا
تمنَّيتَها لّما تمنَّيْتَ أنْ ترَى　　صديقاً فأعْيا أو عدّواً مُداجيا

. . . .　　. . . . .

فما ينفعُ الأُسْدَ الحياءُ من الطَوَى　　ولا تُتَّقَى حتى تكون ضَواريا
حَبَبْتُك قلبي قبلَ حُبِّك مَن نأى　　وقد كان غَدّاراً فكن أنتَ وافيا

قلت:

أحسنْتَ، أبا الندى، لقد جئتَ بها، ألا ترى أنَّ شاعرنا نضو ألم دفين يتجرّعه أمرَّ من العلقم؟

إنه عاتب على الذي كان له معه صلة حميمة، وقد أمحضه وُدَّه وانطلق في الإشادة به، وكأنه آبَ كما يؤوب من الغنيمة بخفَّي حنين.

إنه سيف الدولة الذي صرف إليه فنَّه وجهدَه وحَذِقَ في صنعته.

قال أبو الندى:

إذا كان هذا فكيف يصفه «بالغدر»، هذا ما لا يدخل في حيّز العتاب، ولو قلت: شتيمة وقذف لكان أصحّ. ألا ترى أنه قال بعد ذلك:

وأعلم أن البينَ يُشكيكَ بَعْدَه　　فلستَ فؤادي إنْ رأيتُكَ شاكيا
فإنَّ دُموعَ العَيْنِ غُدْرٌ بربّها　　إذا كُنَّ إثْرَ الغادرينَ جَواريا

. . . .　　. . . . .

أقِلَّ اشتياقاً أيها القلبُ رُبَّما　　رأيتُك تُصفي الوُدَّ من ليس صافيا
خُلِقْتُ ألوفاً لو رجعتُ إلى الصِبا　　لفارقتُ شيبي مُوجَعَ القلبِ باكيا

قلت:

هذا أَلَمُ من نَدِمَ على مجدٍ ضيَّعه، وعلى صنيع حَسَن لم يقابل بما يكافئه.

ولكنْ هل كنت، أبا الطيّب، ألوفاً؟ إني لأشك في هذا، ذلك أن هذه النفس الملتهبة التي تسمو إلى العلاء، والقلب الذي يأسى لأنّ صاحبه لم يستطع إدراك حقّه المسلوب، لا يمكن أن يكون، كما قلت، «ألوفاً».

أنت صاحب طِماح، وطماحك أنك وأهل بيتك قد حيزت عنهم الرئاسات والولايات، فأي مرارة أقسى من أن يلجئك الخطب فتأوي إلى الأخشيديّ الخصيّ؟

قال أبو الندى:

ولكن قد كان في القصيدة مدح كافور وذلك بعد قوله:

ولكنَّ بالفُسطاطِ بحراً أزَرْتُه حَياتي ونُصحي والهوى والقوافيا
وجُرْداً مَدَدْنا بينَ آذانها القَنا فبِتْنَ خفافاً يتَّبِعْنَ العواليا

. . . .

. . . .

قَواصِدَ كافور تَوارِكَ غيره ومن قَصَد البحرَ استقلَّ السواقيا

. . . .

أبا المسك ذا الوجهُ الذي كنت تائقاً إليه وذا اليومُ الذي كنت راجيا

قلت:

على رسلك، أبا الطيب، ولا تَفقِد من غَرْبِكَ، فأنت أجَلُّ مما صِرْت فيه، وأين «البحر» الذي «استقلَلْت معه السواقي»؟ ولا أدري كيف غَلَبَتْك الخطوب فذهبتَ أبعَدَ مذهب حتى قلت:

أبا كل طيبٍ لا أبا المِسْكِ وحدَهُ وكلَّ سحابٍ لا أخصُّ الغواديا

قال أبو الطيب:

لا أدري والله، كيف يكون لي أن أصبر على جوركما، أيقال لي، وأنا أبو محسَّد، هذا القول؟

قلت:

فكيف لي أن أفهم مدحك لكافور على غير حقيقته؟ إنك مع كافور صاحب حاجة بل راجٍ لمنفعة ومصوِّب لغرض، ما أراك تنوشه، ألم تقلْ له:

وغيرَ كثيرٍ أن يزورَك راجلٌ فيرجع مَلْكاً للعراقين واليا
فقد تَهَبُ الجيش الذي جاء غازياً لسائلك الفَرْد الذي جاء عافيا



لا أريد، أبا الطيّب، أن أسيء إليك، ولكنّها نفس جُبِلَت على حب الدنيا، وإن النفسَ لأمّارة بالسوء.

قال أبو الندى:

لا تذهبا في لجاجة تفسد علينا طيب مجلسنا، وانظر شيخي إلى هذه القصيدة تَرَها هيكلا أُحسِنَ بناؤه فجاء فيه كلّ ركنٍ ينظر إلى الآخر فيرتبط به بوشائج أصِيلة.

وانظر كيف كان فيها قوله:

إذا الجود لم يُرزَقْ خلاصاً من الأذى فلا الحمدُ مكسوباً ولا المال باقيا

إنها لحكمة طيبة، وأيُّ شيء هذا الذي يلغط به النحاة؟

ثم قال:

وللنفس أخلاقٌ تدلُّ على الفتَى أكان سخاء ما أَتَى أم تساخيا

وإذا كان لنا أن نجول في هذه «العمارة» التي أحسَنَ تشييدها أبو محمّد فذلك يُجزئ عن أن نقول شيئاً في همزيته في كافور مهنّئاً إياه على بنائه داراً له بإزاء الجامع الأعلى على البِركة.

غير أن هذا لا يُعفينا من النظر في بائيته المحجَّلة التي مطلعها:

مَنِ الجآذِرُ في زيّ الأعاريبِ حُمْرَ الحِلَى والمطايا والجلابيبِ

قلت:

يهمني من أمر هذه الديباجة في النسيب قول شاعرنا:

كم زَورةٍ لك في الأعراب خافيةٍ أدْهَى وقد رَقَدوا من زَورةِ الذيبِ
أزورُهم وسوادُ الليل يشفَعُ لي وأنثني وبياض الصبح يُغري بي

وليس اهتمامي بهذا هو اهتمام أهل البديع بما في البيت من «المقابلة» بين الضرب والعجز، فما أبعدَني عن ألاعيبهم في الطباق والجناس.

ثم لا أنسى أن من أوّل ما استظهرت أيّام الطلب من شعر أبي الطيّب هو



قول أبي الطيّب:

حسنُ الحضـارة مجلوبٌ بتَـطرِيـةٍ   وفي البـداوة حُسْنٌ غـير مجلوبِ

وقوله:

أفـدي ظِبـاءَ فَـلاةٍ ما عَـرَفْنَ بها   مَضْـغَ الكلام ولا صَبْغَ الحـواجيبِ
ولا بَـرَزْنَ مـن الحمّـام مـائـلة   أوراكُهُنَّ صقيـلاتِ العـراقيـبِ
ومن هَـوَى كـلِّ مَن ليسَتْ مُمَـوَّهةً   تَـرَكتُ لـونَ مشيبي غـيرَ مخضـوبِ
ومن هَـوَى الصِّدْقِ في قـولي وعادتِـهِ   رَغِبْتُ عن شَعَرٍ في الرأسِ مكذوبِ

قال أبو الندى:

وأين نحن من قوله المأثور الذي ينطلق بلباقة ورشاقة فيستظهره السامع وهو لا يدري:

ليتَ الحـوادثَ باعَتْني الـذي أخَذَت   منّيَ بحِلْمي الـذي أعْـطَتْ وتَجـريبي
فـما الحـداثـةُ من حِلْمٍ بمـانعـةٍ   قـد يُوجَـدُ الحِلْمُ في الشبّانِ والشيبِ

وهكذا كانت «الحداثة» سبيلاً إلى «تخلصه» إلى صاحبه فقال:

تَـرَعْـرَعَ الملك الأستـاذ مكتهـلاً   قبـلَ اكتهـالٍ أديبـاً قبـل تـأديبِ

قلت:

ما أسخاك أخي أبا الطيب، تمنح الألقاب من لم يكن منها بشيء، فكأنّك تعود باللقَب إلى أصل وضعه، ألم يكن في شواهدنا النحوية قول أحدهم:

أكـنيـهِ حـينَ أنـاديـهِ لأكـرِمَـهُ   ولا أُلَـقِّبُـهُ والـسَّـوْأَةُ الـلقـبـا

عافاك الله، كيف صيَّرت الخصيَّ الأسود «أستاذاً»! ثم مضيت في مديح حلو عَذْب، ولكنه في غير موضعه.

وإذا جُدْتَ عليه فصار «ملكاً» و«أستاذاً» فكيف قلت في آخر فريدتك الحسناء:

يـا أيُّهـا المـلكُ الغـاني بـتسـميـةٍ   في الشرق والغرب عن وَصفٍ وتلقيبِ

لا أدري كيف كان ذلك.

قال أبو الطيب:

لقد ضاق صدري بكما، وما أراكما إلاّ أخـوَيَّ، فكيف جُرتُما عليَّ، وأنكرتما سوء حالي وأنا أهُمّ على مبارحة «حلَب» تاركاً صاحبي الذي «أغرَى المتشاعرين» فيَّ فتقوَّلوا وحَسَدوا وأساءوا.

ألم تمرّوا على ميميّتي التي وقفتم فيها على عتابٍ أقسى من الهجاء. ألم أخاطب ابن حمدان بقولي:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرِهِ إذا استَوَت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

قلت:

لا تبتئس، أبا الطيّب، بكلماتي، فقد يقسو الصديق على صديقه وهو يقصد تأكيد مودّته.

وليس الذي قلته في القصيدة عَيْباً، وهي فوق ذلك، ولا أقول: لا تعدِمِ الحسناء ذاما.

قال أبو الندى:

ولنتجاوز الدالية في مدح كافور التي مطلعها:

أودّ من الأيّام ما لا تودّهُ وأشكو إليها بَيْننَا وهي جُنْدُهُ

ونعرض لميميّة من فرائد شاعرنا.

قلت:

مهلاً، أبا الندى، ليس لنا أن نمر مرور العجلان على الداليّة ولا نقف على قول أبي محسَّد:

فلا مَجْدَ في الدنيا لمن قلَّ مالُهُ ولا مالَ في الدنيا لمن قلَّ مجدُهُ

قال أبو الطيب:

وهذه أخرى، كأنك تومئ إلى ما روّجه الأعداء فيَّ واتّهامهم لي بالبخل، وصنعوا وحاكوا الأراجيف من الحكايات.

قلت:

أقسم أن ليس شيء من ذلك قد كان معي، ولكني فطنت إلى شيء من ألاعيب أهل البديع أسموه «رَدّ العجُز على الصدر».

قال أبو الندى:

لقد تجاوزنا أمر حوارنا فصار بعضنا يظن في صاحبه السوء، وإن بعضَ الظنِّ إثم.

ولنعُد إلى الميميّة التي تذكَّر فيها أبو الطيب ما فات، واستقبَلَ ما جاء إليه مُيَمِّماً، ومطلعها:

فـراقٌ ومَن فـارقتُ غـيرُ مُـذَمَّـمِ وأمٌّ ومـن يمَّـمـتُ خـيرُ مُـيَـمَّـمِ

ومضى في نسيب ذي أصالة لا يقوَى عليها غير أبي الطيّب، إلى أن قال:

رَمَى واتّقَى رَمْيي ومن دون ما اتَّقَى هـوىً كـاسِرٌ كَفّي وقـوسي وأسهمي

قلت:

لقد أومأتَ، أبا الطيّب، إلى سيف الدولة وما كان من جفائه وجفوته في آخر أيامك في حلب، وإن مودتك له وقفت حائلاً بينكما، فلم تقوَ على هجائه، أليس كذلك؟

قال أبو الطيّب:

بَلَى، لقد أصبت في هذا.

وأبياتي بعد هذا البيت لا تبعد عما كنت فيه:

إذا ساءَ فعل المرء ساءت عيوبه وصـدَّق مـا يعتـادُهُ مـن تَـوَهُّـمِ
وعـادَى مُحبّيـهِ بقـول عُـداتِـهِ وأصبح في ليل من الشكِّ مُظلِمِ
أُصادِقُ نفسَ المرء من قبل جسمه وأعـرفـهـا في فِـعْـلهِ والـتـكـلُّمِ
وأحـلُمُ عـن خـلّي وأعـلمُ أنّـه متى أجزِهِ حِلْماً على الجهل يَنْدَمِ



قال أبو الندى:

ثم خلص إلى صاحبه فقال:

فـدًى لأبي المسـك الكرام فـإنّها سـوابق خَيـلٍ يَهتـدينَ بأدْهَمِ

. . . .

. . . .

أبا المسكِ أرجو منك نَصراً على العِدَى وآمُلُ عـزّاً يخضِبُ البيض بـالـدمِ

قلت:

ألي أن أفهم من قولك هذا أنك تأمل من كافور عوناً تستطيع معه أن تستردّ حقاً سُلِبْتَه فيعود إليك مجدُ سعيتَ له وسرتَ إليه وقد طالت مسيرتك، وهـو ذاك الذي أشـار إليه بضعـة نفر من أنـك وارث الدوحـة العلوية التي ضيمت؟

أليس لي أن أقول: إن عزوفك عن الاتصال بالرئاسة العباسيّة شيء من هذا؟...

قال أبو الطيب:

أشهدُ أنك ذو فطنة وذكاء لا نجدهما إلا في أفذاذ الرجال.

قال أبو الندى:

وليس لنا حاجة في قصيدة أخرى على فضلها، وهي تلك التي قالها حين جرت وحشة بين الأستاذ كافور والأمير أبي القاسم مدةً ثم اصطلحا، ومطلعها:

حَسَمَ الصلح مـا اشتَهَتْـه الأعـادي وأذاعَـتْـه ألـسُـنُ الحُـسّـادِ

ولنتجاوزها إلى بائية صبَّ فيها أبو الطيب من نوازع نفسه ما جعلها فريدة من الفرائد، وهي في مدح كافور ومطلعها:

أغـالبُ فيك الشـوقَ والشوقُ أغلَبُ وأعجَبُ من ذا الهجر والوصل أعجَبُ

قلت:

لا فُضَّ فوك، أبا الندى، إن هذه البائية من أعلاقه النفيسة، وهي حاجتنا لكثرة ما اشتملت عليه من الفوائد الحسان.

لقد وقفت فيها على قول أبي الطيّب:

عشيَّةَ أحفَى الناس بي من جَفَوتُهُ ... وأهدَى الطَريقَيْنِ التي أَتَجَنَّبُ

وبودّي أن أُسِرَّ إلى صاحبي أبي الطيب فأسأله، أليس في ذلك إشارة إلى صاحبك سيف الدولة؟

قال أبو الطيّب:

بَلَى، هو ذاك.

قلت:

لقد وصفتَ هذه، أبا الندى، فقلتَ: إنها فريدة من الفرائد فماذا يعني قولك هذا؟

قال أبو الندى:

من فوائد هذه «الفريدة الحسناء» قول أبي الطيب:

وكم لظلام الليل عندك من يَدٍ ... تُخبِّرُ أنَّ المانويّةَ تكذِبُ

أي أن ظلام الليل قد أحسن لأبي الطيب فهي تكذِّب ما زعمه المانويّة، وهم أصحاب ماني المثلويّ القائلون إنّ الخير كله من النور، والشرّ كلّه من الظلمة.

ثم لنأت إلى وصف نهاره في قوله:

ويومٍ كليل العاشقين كمَنتُه ... أراقبُ فيه الشمسَ أيّانَ تغرُبُ

وعَيني إلى أُذْنَي أغرَّ كأنه ... من الليل باقٍ بين عينَيهِ كوكبُ

ثم يبدأ في وصف جواده، ويأتي به إلى ممدوحه في رفق ويُسر فيقول:

لحَى اللهُ ذي الدنيا مُناخاً لراكبٍ ... فكلُّ بعيد الهمِّ فيها معذَّبُ

ألا ليتَ شعري هل أقولُ قصيدةً ... فلا أشتكي فيها ولا أتعَتَّبُ

وبي ما يــذودُ الـشعــرَ عــنّي أقـلّه   ولكنَّ قلبي يــا ابنــةَ القــومِ قُلَّبُ
وأخـلاق كـافـورٍ إذا شئت مـدحــه   وإن لم أشَــأْ تُملي علـيَّ وأكـتُبُ
إذا تَـرَكَ الإنـســانُ أهـلاً وراءَه   ويمَّـمَ كــافــوراً فــما يــتــغَـرَّبُ

ويمضي أبو الطيب في مديحه فيشير إلى أفعاله «رأياً وحكمةً ونادرةً حين يرضَى ويغضب».

ويشير إلى شجاعته و«عطاياه التي تزيد كثرةً على اللَّبْث في حين تنضُب أمواه السحاب».

قلت:

ونأتي إلى قوله:

أبا المِسكِ هل في الكأس فضل أناله   فــإنّي أغــنّي منـذ حــينٍ وتـشــربُ

لقد هالني أن يذهب صاحبي أبو الطيّب إلى هذا الحد ويرضى لنفسه أن يكون صنّاجة طرب يتقرّب بطربه إلى «الملك الأستاذ، أبي المسك».

ما كنتُ أرضَى لصاحبي هذا، وإن قال بعد هذا البيت:

إذا لم تُــنِطْ بي ضَـيْـعــةً أو ولايــةً   فجــودُك يكســوني وشُغـلُكَ يَسْـلُبُ

قال أبو الطيّب:

والله لقد تركتَني في مثل حُجْر الضَّبّ فما أدري ما أقول. لقد أشرتُ إلى أني طالبُ حاجة بعيد مطلبها، فما حيلتي وأنا المضطرّ...؟

قال أبو الندى:

دَعْ عنك هذا، وانظر إلى حنينه إلى أهله حين قال:

يُضاحِـكُ في ذا العيدِ كُـلٌّ حبيبَــه   حِـذائي وأبكي من أحِـبُّ وأنــدُبُ
أحِـنُّ إلى أهــلي وأهــوَى لقــاءَهُـم   وأينَ من المشتــاقِ عَنْقــاءُ مُـغـرِبُ

قلت:

ولكن ما لبث أن قال بعد هذا الكلم العذب:

فـإنْ لم يكن إلاّ أبـو المِسْـكِ أو هُمُ فـإنّــك أحــلَى في فؤادي وأعــذَبُ

فأين صار إذن حنينه وتوجّعُه؟

أفي ذلك شكٌّ وأنت تجد أبا الطيب يقول بعد هذا البيت:

وكــلُّ امـرىءٍ يُـولي الجميـل محبَّبٌ وكــلّ مكــانٍ يُنبتُ الـعــزّ طيّبُ

أبقيَ بعد هذا أيُّ قول في حنينه لأهله ووطنه.

أتُـراكَ استبدلتَ، أبـا الطيب، مُقـامك في حضرة الإخشيـديّ بأهلك ووطنك؟

قال أبو الطيب:

وماذا ترى في وَطَن لم تجد فيه ما تطلُبه ويعزّ عليـك أن تحقّق لنفسك صَبَواتِها؟

إنكما لم تُدركا ما أصبو إليه، ولو عرفتما من أمره بعض شيء لـوجدتُ لديكما متعةً في العذر، ولكن أنَّى لي هذا؟

قلت:

إنْ جهلنا هذا الذي أشرت إليه، أيكون منك أن تذهب إلى هذا الحدّ؟ فتقول:

ومـا طَـرَبي لـمَّا رأيتــك بِــدْعــةً لقــد كنتُ أرجـو أن أراك فأطرَبُ

قال أبو الندى:

قد تقول: هل لنا عود إلى أبي الطيب مع سيف الدولة في هذه الحقبة التي انتهى فيها صاحبنا إلى الإخشيديّ؟

نعم لنا ذلك فقد اتّصلَ بأبي الطيب أنّ قوماً نَعَوه في مجلس سيف الدولة بحلب فقال نونيّته التي لم يُنشدها كافوراً ومطلعها:

بِــمَ الـتــعـلُّلُ لا أهــلٌ ولا وَطَــنُ ولا نــديـمٌ ولا كــأسٌ ولا سَــكَــنُ

قلت:

مهما قسا المرء فلا بد أن تحين منه التفاتة إلى أهله ووطنه، وها هو ذا أبو الطيب يذكر وطنه، ولكنه لا يشير إلى بلده الكوفة التي لم نجد لها أيّ ذكر في شعره.

وما لبث أن غادر هذا الحنين في مطلع قصيدتـه وراح يفخر بـطريقته الخاصة التي يتعالى فيها على الزمان والمكان فقال:

أريـد مـن زمني ذا أن يـبلّغـني ... مـا ليس يبلُغـه من نفسـه الـزَمَنُ
لا تـلقَ دهـرَكَ إلاّ غـير مكتـرثٍ ... مـا دام يصحَبُ فيه روحَكَ البَدَنُ
فـما يُـديمُ سروراً مـا سُرِرْتَ بـه ... ولا يَـرُدُّ عليـك الفـائتَ الحَـزَنُ

قال أبو الندى:

قد عرضنا في مجلس سابق لمشكلة «أنا» في شعر أبي الطيّب. وكأن في هذه القصيدة شيئاً من صدى «أنا» يتمثل في سُخره من العشاق والمحبين، وكأنه نسي نسيبه المصنوع والمطبوع فقال:

ممّـا أضرَّ بـأهـل الـعِشْـقِ أنَّهُمُ ... هَـوُوا وما عَـرَفوا الـدنيا ومـا فَطِنـوا
تَـفْنَى عـيـونُهُمُ دمعـاً وأنـفسُـهُـمْ ... في إثْـرِ كـل قبيحٍ وجهُـهُ حَسَـنُ
تحمَّـلوا حَمـلَتْكُـمْ كـلُّ نـاجيـةٍ ... فكـل بَـيْنٍ علـيَّ الـيومَ مُؤتَمَـنُ
مـا في هوادجِكُم من مُهْجتي عِـوَضٌ ... إنْ مِتُّ شـوقاً ولا فيهـا لهـا ثَمَنُ

قلت:

وقد بدا منه في هذه القصيـدة إعراب عن نـوازع غضبه واستيـائه من معاملة سيف الدولة في أيّامه الأخيرة بحلب. وهذه تفسر عتابه الذي كان أقربَ إلى الهجاء، وفي هذه القصيدة مثل ذاك وهو قوله:

كم قـد قُتِلْتُ وكم قـد مِتُّ عنـدكم ... ثم انتَفَضْتُ فـزال القـبرُ والـكفَـنُ
قـد كـان شـاهَـدَ دَفْني قبلَ قـولِهِمِ ... جمـاعـة ثم مـاتـوا قبـلَ مَنْ دَفَنـوا
. . . .



رأيتُكم لا يصونُ العِرْضَ جارُكُمُ ولا يَدِرُّ على مرعاكُمُ اللَّبَنُ
جزاءُ كل قريبٍ منكُمُ مَلَلٌ وحَظُّ كلِّ مُحبٍّ منكُمُ ضَغَنُ
وتغضَبون على من نال رِفْدَكُمُ حتى يَعاقبَه التنغيصُ والمِنَنُ

إلى أن قال:

سَهِرتُ بعد رَحيلي وحشةً لكُمُ ثم استَمرَّ مَريري وارعَوَى الوَسَنُ
وإنْ بُليتُ بوُدٍّ مثلِ وُدِّكُمُ فإنّني بفراقٍ مثلِهِ قَمِنُ

قال أبو الطيب:

إذا طفح الكأس فاض، وهل عليَّ شيء أن أعرب عمّا في نفسي من ألم مرير؟

قال أبو الندى:

فكيف أفهم، شيخي أبا الطيّب، عودتك إلى مدح سيف الدولة بعد رجوعك من مصر إلى الكوفة حين أنفذ إليك سيف الدولة ابنه مع هدية خصَّك بها؟

قال أبو الطيب:

اتقوا الله فيَّ، ولا تجحدوني أمري، ولا تذهبوا في ضلالكم، فإني امرؤ تعرض له أحوال عدّة، وقد تضطرُّه تلك إلى أن يكون غير نفسه، حتى إذا عاد إلى هدوئه أخذه شيء أقوى من الندَم.

قلت:

أَلِي أن أتلو قوله ـ عزَّ من قائل ـ: ﴿**والشعراء يتَّبعهُم الغاوون، ألم ترَ أنهم في كُلِّ وادٍ يهيمون، وإنهم يقولون ما لا يفعلون**﴾.

صدق الله العلي العظيم.

قال أبو الندى:

هل لأستاذي أبي الطيّب أن يجلوَ عنّي هذا الضيق الذي أشعر به وأنا أقرأ



قولك:

مـا كـل مـا يتمنّى المرءُ يُـدرِكُـه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السُّفُنُ

قد أدرج قولك هذا بعد قولك:

قـد كـانَ شـاهَـدَ دَفْني قبل قـولهِمِ ... جماعـةٌ ثم مـاتـوا قبـلَ مَن دَفَنـوا

وكأني أشعر أنك تنطلق في حكمتك إن حزبك خطب واشتدَّ عليك فيكون ذلك داعياً للبحث في الناس وأخلاقهم. وكأن هذا قد كان لك في مصر فقلت المقطوعة النونية، ولم يكن كافور منها بشيء، قلت:

صَحِبَ النـاسُ قبلَنا ذا الـزمـانـا ... وعَنـاهُمْ من شـأنِـهِ مـا عنـانـا

....

ربَّمـا تُحسِنُ الـصنيـعَ ليـالـيـ ... ـهِ ولـكـنْ تـكـدِّرُ الإحـسـانـا

.... كلّما أنبتَ الزمان قناةً ... رَكَّبَ المرءُ في القـنـاةِ سِنـانـا

ومُـرادُ الـنفـوس أصغَـرُ مِن أنْ ... نَـتَـعـادَى فـيـه وأنْ نَـتَفـانَى

غـيرَ أنّ الـفتى يُـلاقـي المنـايـا ... كـالحـاتٍ ولا يُـلاقـي الهَـوانـا

ولـو أنَّ الحـيـاةَ تـبـقَـى لحـيٍّ ... لـعَـدَدْنـا أضلَّنـا الـشجـعـانـا

وإذا لم يـكـن مـن المـوت بُـدٌّ ... فمن الـعَجْـزِ أنْ تـكـونَ جبـانـا

قال أبو الطيب:

علَّلتَ فأحسنتَ التعليل وأصبتَ الحقيقة..

ولكن هل رأيت لدى غيري من أهل صناعة النظم نحواً من هذه المقطوعة التي تجمع في أبيات عدة هذه الشذرات اللامعات؟

قلت:

أُقسِمُ أنَّ الذي يتهيأ لك غيرُ حاصل لدى أصحابك الذين شقوا بهذه الصنعة العسيرة.

ولكن هل لنا أن نعرض لنونيّة لك قلتها في كافور لما قتل شبيباً العُقيليّ في دمشق سنة ٣٤٨ هـ، ومطلعها:

عـدوُّكَ مـذمـومٌ بـكـلِّ لسـانِ ولـو كـانَ من أعـدائـك القَمَـرانِ

قال أبو الندى:

ليس فيها من الفوائد التي فينا حاجة إليها على إحسان صنعتها. لقد مدح أبو الطيب كافوراً وأشارَ إلى سحق شبيب المتمرد على طاعته.

ولكن هل لنا في البائية التي قالها في مدحه، وهي عَيْبَةُ فوائد وظَرْف وأدب أصيل.

قلت:

لعلها آخر ما أنشد في مصر في مدح كافور!...

قال أبو الندى:

نعم، هي تلك التي مطلعها:

مُنًى كُنَّ لي إن البيـاضَ خِضـابُ فيخْفَى بـتبييض الـقـرون شبـابُ

قلت:

لا حاجة لنا بمقدمة النسيب في هذه القصيدة فهي على حسنها لا تعرب عن حرارة لبعدها عن الصدق.

غير أن في القصيدة شيئاً له خطره، وهو قوله:

غـنيٌّ عـن الأوطـان لا يـستـفـزني إلى بَـلَـدٍ سـافَـرتُ عـنـه إيـابُ

فكيف يقول أبو الطيّب؟ ألا ينسجم مع قولك:

«وكل مكانٍ يُنبِتُ العزَّ طيّبُ»

وهذا عجز بيت من قصيدة في مدح كافور وقد عرضنا لها.

قال أبو الطيب:

ما تني صاحبي تعيد عليَّ قولتك هذه، أتتَّهمني في انتسابي إلى وطن، وأنا صاحب رأي دون تحقيقه خرط القتاد.

قال أبو الندى.

على رسلك شيخي، نقول هذا وننسى فخر أبي الطيّب في القصيدة وهو السلسل النمير.

قلت:

نعم، هو السلسل النمير، ولكنه يفصح عن نظر أبي الطيب إلى نفسه وإلى الناس في علاقاتهم بعضهم ببعض.

قال:

وأصدَى فلا أُبدي إلى الماء حاجةً وللشمسِ فوق اليَعمَلاتِ لُعابُ
وللسِرِّ منّي موضعٌ لا ينالهُ نديمٌ ولا يُفضي إليه شرابُ
وللخَوْدِ منّي ساعةٌ ثم بيننا فلاة إلى غير الفضاء تُجابُ
وما العِشقُ إلاّ غِرَّةٌ وطَماعةٌ يُعَرِّضُ قلب نفسَه فيُصابُ
وغير فؤادي للغَواني رَميّةٌ وغيرُ بناني للزُجاج ركابُ

قال أبو الطيب:

كأنك جئت إلى هذه الأبيات لتقول: إن لنسيبك صنعة حذقت إنجازها ولكنه يفتقر للصدق، وكأنك تقول لي: ألم تقل:

إذا كانَ مدحٌ فالنسيب المقدَّمُ أكلُّ فصيحٍ قال شعراً مُتَيَّمُ

قلت:

نعم: هذه هي الخود عندك تقضي معها ساعة، ثم تصرمها إلى غير رجعة، ألم تقل:

ألا كل ماشيةِ الخَيْزلَى فِدَى كلِّ ماشية الهيذَبَى

فالمرأة صاحبة مشية الخَيْزلَى تكون فداءً لديك لماشية الهيذبى وهي الفَرَس، أيصحُّ هذا....

قال أبو الندى:

دعنا عن هذا وخذ الفوائد الأخرى كقوله:

أعَزّ مكانٍ في الدنا سَرْجُ سابحٍ وخير جليسٍ في الزمان كتابُ

ومنها خلص إلى كافور، والخلوص غير سديد، وذلك أنه قال بعد هذا البيت:

وبَحْرُ أبي المِسْكِ الخِضَمُّ الذي له على كل بَحْرٍ زَخْرةٌ وعُبابُ

ثم يمضي في مديحه، ولكنه لا يشعر بالراحة والطمأنينة لأنه صاحب غرض يرمي إليه ولا يصيب، ويبدو هذا من قوله:

وهل نافعي أن تُرفَع الحجب بيننا ودونَ الذي أمَّلْتُ منكَ حِجابُ

قال أبو الطيِّب:

وهذه ثالثة الأثافي، فليس لي ما أقول، وقد كثرت فيَّ نصالكما.

قلت: لا أراك إلا أخانا الحميم فطِبْ نفساً وقَرّ عيناً وأنت في مجلسك.

المجلس التاسع

قال أبو الندى:

آمل أن أكون قد عدنا إلى إخائنا وصفائِنا ومودتنا، فليس لنا معك إلا الإخاء الصميم، وإننا ما اجتمعنا إلا على هذا.

فلنتحول الليلة إلى اللامية التي مدحت بها أبا شجاع فاتك المعروف بالمجنون حين انتقل من الفيّوم إلى مصر، وجاءك يحمل لك هديّة سنيّة، ومطلعها:

لا خيلَ عندك تُهديها ولا مالُ   فليُسْعِدِ النطقُ إنْ لم تُسعِد الحالُ

قلتُ:

لقد أعظَمْتَ هديتك التي تجاوزَت قيمةَ ما حباك به وقد قيل: إنها ألف دينار.

لقد كانت هديتك «خريدة» كما قلت:

واجزِ الأمير الذي نعُماهُ فاجئةٌ   بغَيرِ قولٍ ونُعْمَى الناسِ أقوالُ
فربَّما جَزَت الإحسانَ مُوليَهُ   خريدةٌ من عَذَارَى الحي مكسالُ

ولكنها «خريدة» من الفنّ الذي سَمَوت به.

ثم مضيت في مديحك فمنحت الممدوح صفاته التي عرف بها من شجاعة في الحرب وكرم لا مزيد عليه، وفنون القول في هذه مفتّحة الأبواب لديك.

قال أبو الندى:

ما وقفتَ شيخي على مسألة عوَّدْتَنا أن تقف على نظائرها، وهي قول شاعرنا:

كفاتِكٍ ودخول الكافِ منقصةٌ كالشمسِ قلتُ وما للشمس أمثالُ

قال أبو الطيّب:

تشير إلى «كاف التشبيه» لتقول كما قال صاحبنا شيخك إني استعملت المصطلح اللغوي النحوي، وما أدري أعيباً كان ذاك أم إحساناً؟

قلت:

إحسانك أبا الطيّب، كثير، وليس هذا وغيره معه مما ينقص من عبقريتك التي وُسِمَت بالخلود، ألم تقل في هذه «الخريدة»:

لولا المشقّةُ سادَ الناسُ كلُّهُمُ أَلجودُ يُفقِرُ والإقدامُ قتّالُ
وإنما يبلُغُ الإنسانُ طاقتَهُ ما كلُّ ماشيةٍ بالرَّحْلِ شِمْلالُ
إنّا لفي زَمَنٍ تركُ القبيحِ بهِ مِن أكثرِ الناسِ إحسانٌ وإجمالُ
ذكرُ الفتى عمرُهُ الثاني وحاجتُهُ ما قاتَه وفضولُ العيشِ أشغالُ

وليتكَ أبا الطيّب، كنت كما أشرت في البيت الأخير.

قال أبو الندى:

وقد أحسَنتَ في قولك حين أشرت إلى أن «المجنون» مما نَبَزَه به حسّاده بقولك:

وقد يُلقَّبُهُ «المجنونَ» حاسِدُهُ إذا اختلطْنَ وبعضُ العَقلِ عُقّالُ

وذلك حين تختلط السيوف بالرماح، فأين العقل في هذه المواطن، وهو كالعُقّال الذي يأخذ الدوابَّ بأرجلها فيمنعها المشي.

وأما رثاؤك لأبي شجاع فإحكام وبَراعة، ولم يمنعك الحزن من أن تقول:

تصفو الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ عمّا مضَى فيها وما يُتَوقَّعُ
ولِمن يُغالِطُ في الحقائق نفسَه ويسُومُها طَلَبَ المُحالِ فَتَطْمَعُ

وضربت لذلك مثلاً فقلت:

أينَ الـذي الهَـرَمـانِ من بنيـانـه ما قومُـهُ، مـا يـومُـهُ، مـا المصـرَعُ

ثم بكيتَه وعرضتَ لفضائله الجمة.

وكأنه كان أثيراً بمودتك فقد رثيته وأنت في الكوفة، وعرضت لمسيرك من مصر في ميميَّةٍ من فرائدك، مطلعها:

حتّامَ نحن نُساري النَّجمَ في الظُلَمِ وما سُراهُ على خُـفٍّ ولا قَـدَمِ

وقلتَ فيها قلتَ فيها من الأدب العالي:

ما زلتُ أُضحِكُ إبْلي كلّما نَظَرَت إلى مَن اختضَبَتْ أخفـافُهـا بـدَمِ
أُسيرها بين أصنام أُشـاهـدُهـا ولا أُشـاهـدُ فيهـا عِفَّـةَ الصَنَمِ
حتى رجعْتُ وأقـلامي قـوائـلُ لي المجـدُ للسيف ليس المجـدُ للقَلَمِ

وختمتها أحسنَ ما يكون الختام فقلت:

أتى الـزمـانَ بنُـوهُ في شَبيبتِـهِ فسَـرَّهُـم وأتيـنـاهُ على الهَرَمِ

قلت:

ألنا أن نتحول إلى شعره الآخر في الكوفة بعد أن عاد إليها صاحبنا في أخريات عمره، ومنه ما قاله يمدح أبا الفوارس دِلِّير بن لَشْكَرْوَز الذي أتى الكوفة لقتال الخارجيّ الذي نجَمَ بها من بني كلاب، وقد انصَرَف الخارجيّ قبل وصوله، في قصيدة مطلعها:

كدَعواكِ كلٌّ يدَّعي صحّةَ العقلِ ومن ذا الذي يدري بما فيه من جَهْلِ

وقد انصرف شاعرنا إلى نفسه مخاطباً:

تقولينَ ما في الناسِ مثلَكَ عاشقٌ جِدي مثلَ مَن أحبَبْتُهُ تجِدي مِثْلي
مُحبٌّ كَنَى بالبِيضِ عن مُرْهَفاتِهِ وبالحُسنِ في أجسامِهِنَّ عن الصَّقْلِ

وأين مثلك، أبا الطيب، أحبَبْتَ سيوفَكَ فكَنَيتَ عنها بالبيض، ألم يكن النسيب والغزل لديك غير ما لدى غيركَ من أهل هذه الصنعة؟

ثم مضيتَ مطمئناً إلى نفسك وفلسفتك في الدنيا والناس فقلت:

ذَريني أَنَـلْ مـا لا يُنـال من العُـلَى   فصَعْبُ العُلَى في الصَعْبِ والسَهْلُ بالسَّهْلِ
تُـريـدينَ لُقْيـانَ المعـالي رخيصـةً   ولا بُـدَّ دونَ الشَّهدِ من إبَرِ النَّحْلِ

قال أبو الطيب:

هذه حاجتي فهل أدركتموها، أما تكُفّونَ عن مُساءلتي ومُشاكستي، في صغائر لم تكن منّي بشيء، ولكنّها الضرورات. . . .

قال أبو الندى:

لقد توجَّهْتَ إلى ممدوحكَ دِلّير هذا فأحسنتَ التوجُّهَ فقلتَ:

ولستُ غَبينـاً لـو شَـرِبْتُ منِيَّـتي   بـإكـرام دِلّـير بـن لَـشْكَـرْوَزٍ لي

. . . .

أرادَتْ «كـلابٌ» أن تفـوزَ بـدولـةٍ   لِمَن تَـركَت رَعْيَ الشُوَيْهـاتِ والإبْـلِ
أبَى ربُّهـا أن يتركَ الـوحشَ وحـدَهـا   وأن يؤمِنَ الضَبَّ الخبيثَ من الأكـل

قلت:

كأنَّ أبا الطيب، قد شايع «دِلّير» في قتاله للخارجيّ، وصاحبنا ينزع إلى «علويّتـه» فهو مبغض للخـوارج، وليس شيئاً أن يُنـال منهم ويُقَتَّلوا بـأيـدي الأعاجم.

قال أبو الندى:

أرانا قد أخذَتْ منّا الديار الشامية كل مأخـذ فاستَـوعَبَت مجالسنـا وقد سَعِدنا بما كان لنا من شعر شاعرنا، فهل لنا أن نتحول إلى عالم آخر. وذلك بعد أن رجع أبو الطيب إلى الكوفة فطمحت عينه إلى المشرق.

لقد راسله أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد، وزير ركن الدولة من أرَّجان فسار إليه وقال يمدحه في قصيدة مطلعها:

بـادٍ هـواكَ صَبَـرتَ أم لم تصـبرا   وبكـاكَ إنْ لم يجرِ دمعُـكَ أو جَـرَى

ويمضي في هذه «المقدمة» من النسيب حتى ينتهي إلى قوله:

أَرَجانَ أيّتُها الجيادُ فإنّه عَزمي الذي يَذَرُ الوشيجَ مُكَسّرا

....

أُمّي أبا الفَضْلِ المُبِرَّ أَلِيّتي لَأُيَمِّمَنَّ أجَلَّ بَحْرٍ جَوْهَرا

فماذا يقول فيه أبو الطيّب، وهو يُدرك أنّ لكلّ مُقامٍ مقالاً، لا بدّ أن يعرض لعلمه وأدبه فيقول:

بأبي وأمّي ناطقٌ في لفظِهِ ثَمَنٌ تباعُ به القلوب وتُشْترى

ولا بد أن يقول إنه يعرف حاجة الحرب:

مَن لا تُريه الحربُ خَلْقاً مُقبِلاً فيها ولا خَلْقٌ يراه مُدْبِرا
خَنْثَى الفحول من الكماةِ بصَبْغِهِ ما يلبسون من الحديد مُعَصْفَرا

وكأنّي أواجهُ الفعل «خَنْثَى» أوّلَ مرّة.

قال أبو الطيّب:

هو ما ولَّدتُه من «خُنْثَى» أي صيَّرَهم خناثَى أي بين الرجال والنساء.

قلت:

ما أشجعَك أبا الطيب وما أعلمَك بالعربية....

مَدَحْتَ ابن العميد فأجَدْتَ القول فهو أديب لَسِن، ومُنشِئٌ بليغ ولذلك قُلتَ:

قَطَفَ الرجالُ القولَ وقتَ نَباتِه وقَطَفْتَ أنتَ القولَ لمّا نَوَّرا

....

وإذا سَكَتَّ فأنت أبلغُ خاطبٍ قَلَمٌ لكَ اتَّخذَ الأنامِلَ مِنبَرا
فدَعاكَ حُسَّدُكَ الرئيسَ وأمسَكوا ودعاكَ خالقكَ الرئيس الأكبَرا

لا أدري كيف لك أن تقول ما لم يقله الخالق لتنعت أحد خَلْقِ اللهِ وإن علا منزلةً!

ثم بدا لك أن تفخر فتقول:

من مُبلغُ الأعرابِ أنّي بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا

. . . .

وسَمِعتُ بطليموسَ دارسَ كُتْبه مُتَملِّكاً مُتَبدِّياً مُتحَضِّرا

ولي أن أجتزئ بقصيدتك هذه عن الداليّة التي توجَّهتَ بها إليه مهنِّئاً بالنيروز وتصف السيف الذي قلّدك إيّاه، والفَرَس وصلة أخرى خصَّك بها.

وكان ابن العميد قد عاب الرائية السابقة، وما كان على حق: كأنه استقلَّ أن يُنْعَت برسطاليس والاسكندر من أعاظم الأعاجم، الذين يرى ابن العميد أنه أبَرَّ عليهم. ومطلع هذه:

جاء نَيروزُنا وأنتَ مرادُهْ ووَرَتْ بالذي أرادَ زنادُهْ

وكأنك أبا الطيّب، تعتذر فتقول:

هل لعُذري عند الهُمامِ أبي الفضلِ قبولٌ سوادُ عيني مِدادُهْ

قال أبو الطيّب:

نعم، هو ذاك، وما أراني قد تجاوزت الرائية التي لم تُرضِ أبا الفضل في الإحسان والإجادة.

قال أبو الندى:

فهلا نمضي في هذا العالم الشرقي فنرى أبا الطيب وقد ورد عليه كتاب عضد الدولة يستزيره فقال عند مسيره مودّعاً ابن العميد سنة ٣٥٤ هـ قصيدته الدالية التي مطلعها:

نَسِيتُ وما أنسَى عتاباً على الصدِّ ولا خَفَراً زادَت به حُمرة الخدِّ

إلى أن يقول:

ومَن يصحَب اسمَ ابنِ العميد محمّدٍ يَسِرْ بين أنيابِ الأساوِدِ والأُسْدِ

ويمضي في الثناء عليه بإظهار محامده وفضائله.

قلتُ:

هل لنا أن نعرض للهائية التي قالها أبو الطيّب في مدح عضد الدولة عند قدومه عليه في شيراز، التي مطلعها:

أوْهِ بديلٌ من قولتي واها لِمَنْ نأت والبديل ذكراها
أوْهِ لِمَن لا أرى محاسنَها وأصلُ واها وأوْهِ مرآها

ويمضي أبو الطيب في نسيبه نافذاً من النسيب إلى وصف البادية إلى أن يقول:

وقد رأيت الملوك قاطبةً وسِرتُ حتى رأيتُ مولاها
أبا شجاعٍ بفارس عضد الدولة فنَّاخُسْرُوًا شَهَنشاها

ثم يمضي في مدح عضد الدولة فيشير إلى جملة فضائله.

لقد عرفت هذه القصيدة في كتب البلاغة، فقد أخذوا عليها عدم براعة الاستهلال، وكأنّ البدءَ بـ «أوه» لا يوفر للقصيدة قوّتها وسمتها.

قال أبو الطيب:

لقد أحسَنَ الفرزدق حين قال لعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي: «عليَّ أن أقول، وعليكم معشر النحويين أن تتأوّلوا».

كان ذلك حين عابَ ابن أبي إسحاق على أبي فراس قوله الذي جاء فيه «عطف مرفوع على منصوب» في بيته:

وعضُّ زمانٌ يا ابنَ مروانَ لم يَدَعْ من الناس إلاّ مُسحَتاً أو مجلَّق

قال أبو الندى:

يحيك في نفسي من أمر شعر أبي محسّد أنه انصرف إلى الرئاسات من غير العرب، وقد نعتهم بالملوك، ولم يكن من الكبار من هؤلاء من كان من جِذم عربيّ إلا ابن حمدان.



لقد فتشت فيه عن أمير عربي. . من العراق في الكوفة أو البصرة أو بغداد فلم أجده، فأما الخلفاء العباسيون فكأنهم بادوا، وليس لهم عقب.

لا أدري كيف كان ذلك، أهي العلوية حازتك عن بني العباس؟ إذا كان هذا فأي شيء زادَكَ عن الأمراء العرب؟ نعم قرأت شعرك فوجدت فخراً بالعرب، ولكنه فخر بأسرتك وآبائك، وقدَّمتَ نفسَكَ عليهم.

لقد قلت:

وبهم فخـرُ كـلِّ من نَـطَقَ الضـاد وعَـوْذَ الجاني وغَوثُ الـطريـدِ

لقـد أحجَمتُ غير مـرة أن أبسط هذا الـذي شقيت به ولكنني أخشى ثورتك وغضبك، وإن كنت لا آمن أن أصبح من أعدائك ومهجوّيك.

قلت:

ما لك، أبا الندى، لقد سعيتَ إلى إفساد ما بيننا من إخاء وكأنّك سعيتَ إلى نقض هذا المجلس، فهلا تريَّثْتَ قليلاً حتى نكمـل هذه المسيرة في هذا الديوان الذي استحق مني أن أدعوه «مجمع الآداب».

قال أبو الطيِّب:

ألم أقل إن صاحبنا، أبا الندى، قد أعدَتْه حمّى أعدائي التي قاسوا منها فقضت عليهم. أين أولئك الذين ألَّبهم عليٌّ الوزير المهلَّبي، والآخرون الذين استأجرهم ابن عباد فخبطوا في رَوضي، وآبوا بخيبة مريرة ورجعوا بخُفَّي حُنَين.

قلت:

أما كان عليك أبا الندى أن تعرض في تلاوتك للنونية المرحة التي قالها في مدح عضد الدولة التي جاء فيها خبر «شعب بوّان»، ومطلعها:

مغـاني الشِّعْب طيبـاً في المغـاني بمـنـزلـة الـربـيـع من الـزمـان
ولـكـنّ الـفَـتَى الـعَـرَبيَّ فيـهـا غـريب الـوجـهِ واليـدِ واللسـان
مـلاعِـبُ جِنَّـةٍ لـو سـار فيـهـا سـليـمان لـسـار بـتُـرجُـمـانِ
طَـبَتْ فُـرسـانَـنـا والخيـلَ حتى خَـشِيتُ وإنْ كَـرُمْـنَ من الحِـرانِ

لله دَرُّكَ، أبا الطيّب، ما كان لك أن تكني عن الشمس بغير الدنانير، ألأن هذه ذَهَبٌ يشبه شعاع الشمس أم العكس؟

والقى الشرقُ منها في ثيابي دنانيراً تفِرُّ من البَنانِ

وقلتَ فيها:

يقولُ بشِعْبِ بَوّانٍ حِصاني أعَن هذا يُسار إلى الطعانِ
أبوكُم آدمٌ سَنَّ المعاصي وعلَّمَكُم مفارقة الجِنانِ

ثم انتهيتَ إلى صاحبك عضد الدولة فقلتَ:

فقلتُ: إذا رأيتُ أبا شجاع سَلَوتُ عن العِباد وذا المكانِ
فإنَّ الناسَ والدنيا طريقٌ إلى مَن ما لَهُ في الناس ثانِ

قال أبو الندى:

ولاميَّته في عضد الدولة وقد ذكر وقعة مع وهشوذان بن محمد الكردي، ومطلعها:

إثلِثْ، فإنّا أيها الطَّلَلُ نبكي وتُرزِمُ تَحْتَنا الإبِلُ

ويمضي هذا النسيب الحزين حتى ينتهي إلى قوله:

وتفرَّقَتْ عنكم كتائبُه إنّ المِلاحَ خَوادِعٌ قُتُلُ
ما كنتِ فاعلةً وضيفُكُمُ ملِكُ الملوك وشأنكِ البَخَلُ

وقولكَ، أبا الطيب: «ملك الملوك» ترجمة لفنّاخسرُوا وينطلق بك المديح إلى الإشادة بفضائله وشجاعته ووصف جيشه، وهذا مما يدخل في أدب الحرب، وهذه الوقعة كانت مادة هذه القصيدة.

قلت:

أشهد أنَّ لأبي الطيب ديواناً نستخرجه من ديوانه الكبير في أدب الحرب وما يتصل به من لوازم.

وتتم هزيمة وهشوذان فينبري شاعرنا مادحاً مشيراً إلى ما تمَّ من نصر في قصيدة مطلعها:



أزائـرٌ يـا خـيـالُ أم عـائـدْ أم عـنـدَ مـولاكَ أنّـني راقِـدْ

يعرض فيها للنصر ولهزيمة وهشوذان، ويشير إلى ما كان من مآثر هذه الوقعة، مشيداً بمقدرة عضد الدولة ودهائه ورأيه.

وكأنّ أبا الطيب مع عضد الدولة قد أصبح من خواصّه، فهو معه في كل ما ينويه.

وتُوفِّيَت عمةُ عضد الدولة ببغداد فقال يرثيها ويعزيّه بها، في قصيدة مطلعها:

آخـر مـا المَـلْكُ مُـعَـزًّى بِـهِ هـو الـذي أثَّـرَ في قـلـبِـهِ

وفيها جاء قوله:

لا بُـدَّ لـلإنـسـان من ضَجْـعـةٍ لا تقلبُ المضجَـعَ عن جَـنْـبِـهِ
نـحـن بـنـو المـوتِ فـما بـالُـنـا نَـعـافُ مـا لا بُـدَّ من شُـرْبِـهِ

إلى أن يقول:

أسـتـغـفـر الله لـشَـخْـصٍ مَضَى كـان نَـداه مُـنـتَـهَـى ذَنْـبِـهِ
يـريـد من حُبِّ الـعُـلى عَيْـشـةً ولا يُـريـدُ الـعيشَ مـن حُـبِّـهِ

. . . .

ويُـظـهـر الـتـذكـير في ذكـره ويـسـتـر الـتـأنيـث في حُـجْـبِـهِ

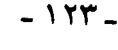
وهذا يعني أنها إذا ذُكِرتْ تظهر بذكرها أفعال الرجال، وإنّ التأنيث منها مستتر في حجابها.

لله أبوك، أبا الطيب، ما أقساك على المرأة تسلبُها كل خير، فهي ضعيفة أبداً، وهي محتاجة للرجل. فأين أضع نسيبك، وكيف لي أن أفهم اللهجة المتلهِّبة وأنت تشكوها أو تشكو منها أو تستعطفها، أضعيفة وقوية في آن واحد!!

ثم تختم الرثاء بمديح وتعزية لعضد الدولة.

قال أبو الطيّب:

كأنكما استنْفَدْتما شعري في المديح، وكأنكما تنويانِ التحوّل إلى باب آخر.





قلت:

نعم خَطَرَ لنا شيء من هذا، وإذا كان ذلك فسيكون مجلسنا القادم في شعر الهجاء.

قال أبو الطيب:

على رسلكما، فلديَّ كافيّة من شعري الذي حرصت عليه.

قال أبو الندى:

لم تفتني الكافيّة وهي مما أحفظه منذ أيّام الطلب، وقد قلتها عند وداعك لعضد الدولة في الأول من شعبان سنة ٣٥٣، ومطلعها:

فِـدًى لـكَ من يقصِّرُ عن مَـداكـا   فـلا مَـلِكٌ إذن إلاّ فَـداكـا

وقلت بعد ذلك:

ولـو قلنا فِـدًى لـكَ مَن يُسـاوي   دَعَـونـا بـالـبقـاء لمـن قَـلاكـا

وآمَـنّـا فِـداءَكَ كـلَّ نَـفْسٍ   ولـو كـانـت لممـلكـةٍ مـلاكـا

قلت:

لله أبوك، أبا الطيّب، كأنك تَنْسَى نفسك حين تنطلق في المديح، أليس من التزيّد أن تخاطب من ودَّعتَه فتقول: «فِدًى»...

وتؤكد هذا المعنى في بيتين تاليَيْن، ما أراكَ إلاّ فرّطتَ في فنّك.

وحرام عليك أن تنال من فنّك بهذا التفريط.

أقول هذا لأني أقرأ في هذه القصيدة شذرات من فن جميل كقولك:

إذا اسـتَشْـفَـيـتَ من داءٍ لـداءٍ   فـأقتَـلُ مـا أعَلّكَ مـا شَـفـاكـا

وفيها أبيات أخرى أصبتَ فيها وأحسنتَ كلَّ الإحسان.

وإلى مجلس قادم.



المجلس العاشر

قال أبو الندى:

وهل لنا أن نعرضَ لفن الهجاء في شعر شاعرنا؟

قلت:

أظن أني أحصيت مقطَّعاته في الهجاء فوجدتها نُبَذاً يسيرة بعضها لا يتجاوز البيتين وكثير منها دون العشرة. ولم يكن مهجوّوه إلا شخوصاً أقرب إلى المناكير. غير أن هجاءه لكافور، وهجاءه لضَبّة ينتظم في قصائد وفيه قسوة.

قال أبو الندى:

ولنعرض لهذه المقطعات إحصاءً فنقول فيها ما بَدَا لنا وهي:

ثلاثة أبيات في هجاء القاضي الذهبيّ الذي لم نعرف عنه إلا ما رأينا من اسمه في الديوان، أولها:

لـمَّا نُسِبْتَ فكنتَ ابناً لغير أبٍ ثم اختُبِرْتَ فلم ترجعْ إلى أدَبِ

وأربعة أبيات يهجو بها سِواراً الديلمي، أولها:

بقيَّةُ قوم آذَنوا ببَوارِ وأنضاءُ أسفار كشُربِ عُقار

ورابعها:

ولا تُنكِرا عصْفَ الرياح فإنّها قِرَى كلِّ ضَيفٍ بات عند سِوارِ

وأول قصيدة في هجاء أحد هؤلاء المجاهيل كانت في هجاء الأعور بن كَرَوَّس، ومطلعها:

عـذيـري مـن عـذارَى من أمـور   سَكَنَّ جـوانـحي بَـدَلَ الخـدورِ

وقال فيها:

فيـا ابن كَرَوَّسٍ يـا نصف أعمَى   وإنْ تـفخَـرْ فيـا نصف البـصـير

....

فـلو كنتَ امـرَأً يُهجَى هَجَـونـا   ولـكـن ضـاق فِـتر عـن مـسيرِ

وأربعة أبيات أُشير إلى أنها في هجاء قوم، أوّلها:

أمـاتَكُمُ من قبلِ مـوتكُمُ الجهـلُ   وجَـرَّكُمُ من خِفَّـةٍ بكُـمُ النَّمْـلُ

وأحد عشر بيتاً في هجاء ابن كَيَغْلَغ حين بلغه أن غلمانه قتلوه، ومطلعها:

قـالـوا لنـا: مـاتَ إسحقٌ فقلتُ لهم   هـذا الدواءُ الـذي يشفي من الحُمُقِ

وثلاثة أبيات في هجاء أبي الفرج السامَريّ أولها:

أسـامَـرّيُّ ضُـحـكَـةُ كـل راءٍ   فَـطِنْتَ وكنتَ أغبَى الأغـبيـاءِ

أما هجاؤه لكافور فيكشف عن أسلوبه في الهجاء، فهو قاس لاذع، وهو في أكثر من قصيدة، ومنه ما كان في **مقطعات**. إن هذا القدر من الهجاء ينم على ما كان في نفسه من ألم وخيبة أمل.

قلت:

إن قصيدته الداليّة تغني عن هذا القدر من الهجاء، لاشتمالها على فوائد أخرى ما خلا الهجاء.

قال أبو الطيب:

إن في داليتي بكاء على نفسي وعلى ما صنعت بنفسي، وما أظن إلاّ أنكم ستأتون عليها.

قال أبو الندى:

إن شعره في هجاء كافور هو:

عشرة أبيات أوّلها:

أريك الرضى لو أَخْفَتِ النفسُ خافيا   وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا

وجاء فيها:

فإنْ كنتُ لا خيراً أفدتُ فإنَّني   أفَدْتُ بلَحْظي مِشفَرَيكَ الملاهيا

وسبعة أبيات أخرى أوّلها:

من أيَّة الطُرْقِ يأتي مثلك الكَرَم   أين المحاجِمُ يا كافور والجَلَمُ

وفيها:

ساداتُ كلِّ أناسٍ من نُفوسِهِمِ   وسادةُ المسلمين الأعبُدُ القَزَمُ
أغايةُ الدينِ أن تُحفُوا شَواربَكم   يا أُمَّةً ضحِكَتْ من جَهلِها الأُمَمُ

وعشرة أبيات أخرى أوّلها:

أما في هذه الدنيا كريم   تزول به عن القلب الهمومُ

وفيها يقول:

حَصَلتُ بأرضِ مِصرَ على عبيدٍ   كأنَّ الحُرَّ بينهم يتيمُ

وتسعة أبيات أوّلها:

أنْوَكُ من عَبْدٍ ومن عِرْسِهِ   من حَكَّمَ العَبْدَ على نفسِهِ

قلت:

حسبنا أبا الندى ما ذكرتَ وما جاء به إحصاؤك، ولننتقل إلى الداليّة الكبرى التي مطلعها:

عيد بأيّة حالٍ عُدْتَ يا عيدُ   بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ

وكأن أبا الطيب عَنَى أبياتها العشرة الأولى التي قال عنها: إنها من نفسه، وأن فيها ما فيها مما يعرب عن أساه ومرارته وخيبة أمله: ومنها:

أما الأحبّة فالبيداء دونَهم   فليتَكَ دونَكَ بيداً دونَها بيدُ

....

. . . .

لم يترك الدهرُ من قلبي ولا كَبِدي ... شيئاً تُتَيِّمه عَيْنٌ ولا جِيدُ

يا ساقيَيَّ أخَمْرٌ في كؤوسِكما ... أم في كؤوسكما هَمٌّ وتسهيدُ

أصخرةٌ أنا ما لي لا تُحرِّكُني ... هذي المدامُ ولا هذي الأغاريدُ

حتى إذا انتقل إلى الهجاء جاء بالسخرية اللاذعة والكلم القارص ومنه قوله:

أكلَّما اغتالَ عبدُ السوءِ سيِّدَه ... أو خانَه فله في مِصْرَ تمهيدُ

صار الخَصيُّ إمامَ الآبقينَ بها ... فالحرُّ مُستعبَدٌ والعبْدُ معبودُ

. . . .

لا تشترِ العبْدَ إلاّ والعَصا معه ... إن العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ

وفيها ما هو أقسى من ذلك، وقد اختار كلمه المناسب لهذه المعاني، وهي كلها نبز وتحقير وشتائم.

قال أبو الندى:

إن أمرها معروف، وهي على كل لسان، وأذكر أني منذ أيام الطلب كنت أستعذِبُ هذه الشتائم أردّدها ويردّدها معي أصحابي: وفيها:

وإنَّ ذا الأسودَ المثقوبَ مِشفَرُهُ ... تُطيعه ذي العَضاريطُ الرعاديدُ

قال أبو الطيب:
ولكني لم أذكر كلمة بذيئة تجرح الحياء.

قلت:
ولكنك أتيت بكل كلم جارح بذيء في هجاء ضبّة وسنأتي عليها.

قال أبو الندى:
على رِسلكم، ألا ترون أن المقصورة قد خص كافوراً بجزء يسير منها فهجاه على طريقته في السخرية، فقال:

وماذا بمِصْرَ من المُضحكاتِ ... ولكنَّه ضَحِكٌ كالبُكا

بها نَبَطيٌّ من أهل السَّوادِ يُدرِّسُ أنسابَ أهل الفلا
وأسودَ مِشفَرُه نِصفُهُ يقال له أنتَ بدرُ الدُجَى

قلت:

رعاك الله، أبا الطيّب، خشيت أن يقال لك: كيف مدحتَه من قبل فأسرفتَ وفرَّطتَ؟ فأجبت هذا السائل المعترض بقولك:

وشِعْرٍ مَدَحتُ به الكَرْكَدَنَّ بين القريض وبينَ الرُّقَى
فما كان ذلك مَدْحاً له ولكنَّه كان هَجْوَ الوَرَى
وقد ضلَّ قومٌ بأصنامِهم وأمّا بزِقٍّ رِياحٍ فلا
ومن جَهِلَتْ نفسُه قدرَه رأى غيرُه منه ما لا يَرَى

قال أبو الندى:

ولنجتزىء بهذا عما بقي من أبياته في مقطعاته في هجاء كافور.

ومن مهجوّيه ضبّة بن يزيد العُتبيّ الذي هجاه بواحدة لا تليق لما ورد فيها من لفظ بذيء.

ألا توافقني أبا الطيب على قولي؟

قال أبو الطيب:

لك أن تقول ذلك.

قلت:

وإني لأجِلّ مجلسنا هذا عن ألفاظ تتجاوز الأدب وتدخل في ألفاظ الهُجر والفحش.

ومطلع القصيدة:

ما أنصفَ القومُ ضَبَّهْ وأُمَّه الطُرْطُبَّهْ

وليس فينا حاجة إلى أن ندخل في هذا.



قال أبو الندى:

وقد يكون مفيداً أن نشير إلى أن أبا الطيّب كان قد مَرّ في طريقه على إسحاق بن الأعور بن ابراهيم بن كَيَغْلَغ، وكان محافظاً على طريق طرابلس، فطلب منه أن يمدحه فاحتجَّ بأنه حَلَف أن لا يمدح أحداً في الطريق، فاعتاقه اسحاق عن طريقه، ولما فارقه قال يهجوه ويمدح أبا العشائر في قصيدة مطلعها:

لِهَوَى النفوس سريرةٌ لا تُعلَمُ عَرَضاً نَظَرْتُ وخِلتُ أنّي أسْلَمُ

ويمضي بعد ذلك في نسيبه في أبيات أربعة ينطلق بعدها في أقواله الشهيرة التي عدّت من القول المأثور وهي:

والهمّ يَختَرِمُ الجسيمَ نَحافةً ويُشيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويُهْرِمُ
ذو العَقلِ يَشقَى في النعيمِ بعَقْلِهِ وأخو الجهالة في الشّقاوة يَنْعَمُ

ومنها:

لا يَسْلَمُ الشَرَفُ الرفيعُ من الأذَى حتى يُراقَ على جَوانبهِ الدَمُ
....
والظلمُ من شِيَمِ النفوسِ فإنْ تجدْ ذا عِفّةٍ فلِعِلّةٍ لا يَظلِمُ

ومما ورد فيها من الهجاء لإسحاق بن الأعور قوله:

ومن البَليّة عَذْلُ من لا يَرْعَوي عن جهلِهِ وخطابُ من لا يفهَمُ
وجفونُه ما تستقرُّ كأنها مطروفةٌ أو فُتَّ فيها حِصْرِمُ
وإذا أشار مُحدِّثًا فكأنّه قِردٌ يُقَهْقِهُ أو عجوزٌ تَلْطِمُ

وإلى مجلس قادم.

المجلس الحادي عشر

قال أبو الندى:

لقد أفضنا في باب المديح الذي شغل جلّ الديوان، ثم عطفنا على الجزء اليسير منه في باب الهجاء. ولم يبق لنا منه إلا بضع قصائد قالها أبو الطيّب في صباه قبل أن يواجه الخطوب في دنياه.

قلت:

نعم هي بضع قصائد كنا قد عرضنا لبعضها فيما يجزينا من فوائد، والداليّة الخفيفة إحداها تلك التي حفلت «بشطحاته» وغيرها.

فما ذا عندك منها ثانيةً.

قال أبو الندى:

لعلّ شعر أبي الطيب في صباه باب خاص أدعوه باب الأصالة ذلك أنه إعراب عن نفسه وآلامها. وقد يقال: أيّ الآلام هذه؟

قال أبو الطيب:

هي الآلام التي فتحت عينيَّ على لظاها، ألم تشيروا إلى أني كنت أشعر بالحرمان، وأنّي من أهل بيت ظلموا وسُلِبَ حقّهم، وأي خطب أفدَح من هذا؟

قلت:

نعم. إن فخره في هذه الدالية صدًى لِما يتوجَّع منه، ألم يقل:

أين فَضْلي إذا قَنِعتُ من الدهرِ بعيشٍ مُعَجَّلِ التنكيدِ
ضاق صدري وطَال في طَلَب الرِزقِ قيامي وقلَّ عنه قُعودي

أبـداً أقـطَعُ الـبـلادَ ونـجـمـي   في نُـحـوسٍ وهِمَّـتي في سُـعـود

ويندرج في هذا الجزء من شعره الميميّة التي قالها في صباه ومطلعها:

ضَـيـفٌ أَلَمَّ بـرأسي غـيرَ مُحتَشِمِ   السيف أحسنُ فِعـلاً منه بـاللِّمَمِ

التي جاء فيها بعد أن مهَّد بشيء من النسيب:

لـيس التعـلُّلُ بـالآمـال مـن أرَبي   ولا القنـاعـة بـالإقـلال من شِيَمي
ولا أظنّ بنـاتِ الـدهـرِ تـتـرُكُني   حتى تسـدَّ عليهـا طُـرْقَهـا هِمَمي
لُمِ الليـالي التي أخنَتْ عـلى جِـدَتي   بـرِقَّـة الحـالِ واعـذرني ولا تَلُمِ
أرَى أنـاسـاً ومحصـولي عـلى غَنَمٍ   وذِكـرَ جُـودٍ ومحصـولي عـلى الكلم

. . . .

لقـد تَصَبَّـرتُ حتى لات مُـصْـطَبَرٍ   فـالآن أقحَمُ حـتى لاتَ مُقْـتَحَـمِ

إلى أن يقول:

رِدِي حِياضَ الرَّدَى يـا نفسُ واتَّركي   حِيـاضَ خوفِ الـردَى للشاء والنَّعَمِ
إنْ لم أذَرْكِ عـلى الأرمـاحِ سـائلةً   فـلا دُعيتُ ابنَ أمِّ المجـدِ والكَـرَمِ

قال أبو الندى:

وأين نحن من الميمية التي قالهـا وقد نـزلت به الحُمّى بمصر فـوصفها ووصف حاله وتوجَّع أحرَّ ما يكون الوَجَع، وهو يعاني في مُقامه مما كان يشقى به من معاملة كافور إيّاه، ومطلعها:

مـلومُكُـمـا. . يجِلُّ عـن المَـلامِ   ووَقْـع فَـعـالِـهِ فـوق الـكـلامِ

ثم قال:

ذَراني والـفَـلاةَ بـلا دلـيـلٍ   ووَجْـهـي والهَـجـيرَ بـلا لـثـامِ
فـإني أسـتريـح بـذي وهـذا   وأتـعَـبُ بـالإنـاخـةِ والمـقـامِ
عـيـونُ رواحـلي إن حِـرْتُ عيني   وكـلُّ بُـغـامِ رازحـةٍ بُـغـامـي
فَقَدْ أرِدُ المـيـاهَ بـغـير هـادٍ   سِـوَى عـدّي لهـا بـرقَ الغمَـامِ
يُـذِمُّ لِمُـهْـجَـتي رَبِّي وسـيـفـي   إذا احتـاج الـوحيـد إلى الـذِمـامِ

إلى أن يقول:

أقمتُ بأرضِ مِصْرَ فلا ورائي تخُبُّ بيَ الرِكابُ ولا أمامي
وملَّني الفراش وكان جنبي يَمَلُّ لقاءَه في كل عام
قليلٌ عائدي سَقِمٌ فؤادي كثير حاسدي صعبٌ مَرامي

إلى أن يقول في وصف الحمّى:

وزائرتي كأنَّ بها حياءً فليس تزور إلاّ في الظلام
بذلتُ لها المطارفَ والحَشايا فعافَتْها وباتَتْ في عظامي

إلى آخر هذا الوصف الدقيق، والقصيدة مشهورة.

قلت:

ولعل في هذا الباب ما أشار إليه أبو الطيب من أن شطراً من داليته في هجاء كافور، هي من هذا الذي نحن فيه.

المجلس الثاني عشر

قال أبو الندى:

ما زال شيء كثير لم نعرض له في مجالسنا هذه، فديوان شاعرنا عَيْبة فوائد، لقد وجد فيه المعاصرون بين منصف وحاقد حاجتهم. وسيبقى هذا الديوان مظنة لدرس جادّ، وسيقول فيه الناقدون من أهل النصَفَة والعدل، وغيرهم من الحسّاد كلمتهم بل كلامهم فيه.

قلت:

وأكبر ظني أنّ فريق المنصفين من أهل العلم سيغلب أهل الحقد والضغينة، ألم تر أنه قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمَعَتْ كلماتي من به صَمَمُ
أنامُ ملءَ جفوني عن شواردها ويسهرُ الخَلقُ جَرّاها ويختصِمُ

وكأنَّ أبا الطيّب قد وثق من تراثه وشرفه فقال:

ما أبعدَ العَيْبَ والنقصانَ عن شَرَفي أنا الثريّا وذانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ

قال أبو الطيب:

أحسَنْتُما وأصَبْتُما، فما عندَكُما الليلة من بضاعة تُعيننا على ما نحن فيه من ليلنا الطويل.

قلت:

لعلك، أبا الطيب، من أحسن من تَصَدَّى للَّيل في طوله وما يُثيره من

همٍّ ناصب وذكر تشقَى به وتنصَب، ألم تقل:

لَيــاليَّ بعــد الــظاعنــين شُكــولُ طــوال، ولـيـل العـاشقـين طــويـلُ

قال أبو الندى:

قلت في نفسي: هل يضيق بنا ديوان أبي محمَّد، ونحسب أننا انتهينا من الكلام على شعره؟ ما أظن ذلك، وبينا أنا في بعض حيرتي بدا لي أن يكون مجلسنا على أبي الطيّب ورأيه في «الناس».

قال أبو الطيب:

ما أدهاك، أبا الندى، أردتَها حامية الوطيس فهاتِها، إن وعائي ليحوي هذا وغيره، وستجدان مما قلته في الناس مادة هذه الليلة، فاتّقِ الله ولا يذهب بك ذكاؤك إلى خذلاني، وأنا صفيُّك وصاحبك.

قلت:

لا عليك، أبا الطيب، وهل لنا حاجة إلاّ ما ترضاه لنفسك؟

قل يا أبا الندى ما بدا لك في الأمر فإني أرى فيك الليلة امرأً طُلعَة إلى الجديد من القول.

قال أبو الندى:

لقد عرفنا أبا الطيب كما عَرَفَه أعداؤه وحسّاده، من أفراد الدهر، ألمعيّاً تجاوز حدود الألمعية، ومن هنا فهو مستهدَف محاسَب محسود. ولهذا لقي من هؤلاء جميعاً الأمرَّيْن، فهو أبداً يحقرهم وينال منهم ولذا فهو يقول:

ومَن عَــرَف الأيّــام معــرفـتي بهــا وبــالنــاس رَوّى رُمحَــه غــيرَ راحم
فـليس بمــرحــومٍ إذا ظَـفِــروا بــه ولا في الـردَى الجاري عليهم بـآثِمِ

قلت:

وقد يكون صاحب حق أن ينطلق في فلسفته هذه بادئاً بالشكِّ بالناس ومنتهياً إلى شبه قناعة أنهم أعداء أهل الفضل، قال ـ لا فضّ فوه ـ:



فـؤادٌ مـا تُـسـلّيـهِ المُـدامُ وعـمـرٌ مِـثْـلُ مـا تَهَـبُ الـلـئـامُ
ودهـرٌ نـاسُـهُ نـاسٌ صِـغـارٌ وإنْ كـانـتْ لهم جُـثَـثٌ ضِـخـامُ

وهو يدرك أن أهل الحذق والخبث سيردّون عليه لأنه من الناس، يدرك هذا فينبري قائلاً:

ومـا أنـا منهمُ بـالـعيش فـيـهـمْ ولـكنْ مَـعْـدِنُ الـذَهَـبِ الـرَّغـامُ

فيُجرِّد نفسه عنهم، وأنّى له هذا؟

ويقول:

أرانـبُ غـيـر أنّهم مـلوكٌ مُـفَـتَّـحـةٌ عـيـونُهُمُ نـيـامُ

لله أبوك أبا محسِّد، لم تستثنِ منهم الملوك.

قال أبو الطيب:

سيقول صاحبنا أبو الندى، إذن كيف تقرَّبَ من الملوك ومدحهم بأكثر مما لهم؟

قال أبو الندى:

لعلك أبا الطيب تتأسى بقوله ـ عزّ من قائل ـ: ﴿**إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذلّة**﴾.

ولكنك امرؤ في هذه الدنيا، وأهل الدنيا تستثيرهم نوازعهم وغاياتهم فأين هم من حكمة الذكر الحكيم؟!

قلت:

أحسنتَ، أبا الندى، لقد فَتّشتَ عن الذريعة فوجدتها ومنحتَني سعة في القول.

ألم يشطح أبو محسّد فيخاطب شجاع بن محمد الطائي المنبجي، أحد ممدوحيه فينعته بالملك، وأين هو من «الملوكية» ويقول:

الى سـيِّـدٍ لـو بَشَّرَ الـلـهُ أمَّـةً بغـيـر نبيٍّ بشَّـرَتْنـا بـه الـرُسْـلُ



إلى القابضِ الأرواح والضيغم الذي تُحدِّثُ عن وَقْفاتِه الخيلُ والرَّجْلُ

تَعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

قال أبو الطيب:

أتعود إلى شِنْشِنتِك فتتَّهمُني بالإلحاد كما اتَّهمني غيرُكَ؟

قلتُ:

لا عليكَ، وليكن لي من سماحتك ورجاحة عقلك وسعة صدرك ما أستطيع معه أن أجول في هذا الشأن. إني لأدرك أن الساعة أمسِ غير الساعة في يومك، *وإنك امرؤ تنظر إلى البعيد البعيد، فهانَ عليك أن قلتَ ما قلتَ.* ومن هنا فإني لأجد الطريق فأفهمُ قولك:

ولا تحسَبَنَّ المجدَ زِقّاً وقينةً فما المجدُ إلا السيفُ والفتكةُ البِكْرُ
وتضريب أعناق الملوك وأنْ تُرَى لك الهَبَوات السود والعَسْكَرُ المَجْرُ

ولنعد إلى صلتك بالناس فنجدك تنفي وجود الصديق فتقول:

خليلُكَ أنتَ لا مَن قلتَ خِلّي وإنْ كَثُرَ التجمُّلُ والكلامُ

وكأنَّ الناسَ هم سواد الطغام الذين شَبَّهْتَهم بالدنيا فقلت:

وشبه الشيء منجذِبٌ إليه وأشبَهُنا بدُنيانا الطَغامُ

قال أبو الطيب:

وهل في ذلك شك فهي «دنيا» أدركها غيري فقال فيها أوائلنا أم دَفرْ، وأنت أعلم بالدَّفر والذَّفر... وقالوا فيها في كُناهم غير هذا.

قال أبو الندى:

لقد خَلَوتَ إلى صاحبك، شيخي، تريد أن تدَّخره لنفسك وتجعلانِ منّي مناوئاً كسائر الشَنَأة الحسّاد.

لا، لست منهم، ولكني طالب أبصر الشيء من وجوهه كافة فأرى



شاعري الذي أوثره بمودتي وإكباري ينعت كافوراً «الملِك» ثم يزيد فيَهبَه العلم فيقول:

«الملِك الأستاذ».

ثم أجدني أمام قولك:

ما كنت أحسَبُني أحيا إلى زَمنٍ يُسيءُ بي فيه عبدٌ وهو محمودُ
ولا توهَّمتُ أنّ الناس قد فُقدوا وأنّ مثل أبي البيضاء موجودُ
وأنَّ ذا الأسوَدَ المثقوبَ مِشفَرُه تُطيعه ذي العضاريط الرعاديدُ
جَوْعانُ يأكلُ من زادي ويُمسِكُني لكي يُقالَ عظيمُ القدْر مقصودُ

إلى أن يقول:

من عَلَّم الأسود المَخصِيَّ مَكْرُمةً أقومُه البيضُ أم آباؤُهُ الصِّيدُ
أم أذْنهُ في يَدِ النخّاسِ داميةً أم قدْرُهُ وهو بالفَلْسَيْنِ مردودُ
أوْلى اللئامِ كويفيرٌ بمعذِرةٍ في كلِّ لؤمٍ وبعض العُذرِ تفنيدُ
وذاكَ أنّ الفحولَ البيضَ عاجزةٌ عن الجميل فكيف الخِصْيَةُ السودُ

وأنا أقول: كيف كان ذلك!

قلت:

ومَن علي بن ابراهيم التنوخي حتى يُقالَ له:

وإنما الناس بالملوك وما تُفلحُ عُربٌ ملوكها عَجَمُ

ومتى كان قَدْر الناس يُقدَّر بالملوك، وهل نسينا خبر الملوك في شعر صاحبنا أبي محسِّد؟ وهل كان هذا التنوخيّ ملكاً؟ ومن عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي من ممدوحيك، أبا محسّد، أملِك هو، ومتى كان؟

وهل يجوز منك أن تقول:

إنّما الناسُ حيث أنتَ وما الناسُ بناسٍ في موضع منكَ خالِ.

قال أبو الطيب:



لقد أخذتُما عليّ شيئاً لم أقصد إليه، فالناس في قولي كلهم الحسّاد الأعداء، وهل تريان أني أقصد كل الناس؟ وذلك يعني أني أضعتُ عقلي وغامت بصيرتي، فلم أدرك الثوابت من الحقائق. وهل يصح أني أقصد عامة الناس في قولي:

واقفاً تحتَ أخمَصَيْ قَدْرِ نفسي واقفاً تحت أخْمَصَيَّ الأنامُ

قلتُ:

نعم لك أن تهجو البُداة الجُناة من الأعراب فتقول:

ومُدْقِعين بسُبْروتٍ صَحِبتُهُمُ عارين من حُلَلٍ كاسينَ من دَرَنِ
خُرّاب باديةٍ غَرْثَى بطونُهُمُ مَكْن الضِّبابِ لهم زادٌ بلا ثَمَنِ

نعم، لك أن تقول ذلك، ولكن كيف لي أن أدرك قولك:

لا أقتَري بَلَداً إلاّ على غَرَرٍ ولا أمُرّ بخَلْقٍ غير مُضطَغِنِ

ولِمَ كان هذا، ولِمَ الاضطغان؟!

ثم قلتَ:

ولا أعاشِر من أملاكهم «ملكاً» إلاّ أحَقَّ بضَرْبِ الرأسِ من وَثَنِ

على رسلك أبا الطيب، كيف نسيت الملوك الذين جعلتهم من القدّيسين؟

قال أبو الندى:

ليس لي سبيل أن أجد لك عذراً وأنت تقول لأحد من ممدوحيك المناكير وهو سعيد بن عبدالله بن الحسن الأنطاكيّ:

لو استطَعْتُ ركبتُ الناسَ كلَّهم إلى سعيد بن عبدالله بُعْرانا

اتَّقِ الله، أبا الطيب، في نفسك وفي «الناس»، أيجوز هذا؟

وصاحبك الممدوح أخ للقاضي أبا الفضل أحمد بن عبدالله بن الحسن الأنطاكي، وهل كان هذا القاضي ملكاً؟



ما أسخاك، بل ما أقساك؟

قال أبو الطيب:

لو لقيتُما من الخطوب مثل ما امتُحِنْتُ به لكان لأحدكما أن يقول ما قلت، ولو أدركتُما ذلك لكان لي عندكما سعة من العذر ولا أقول المغفرة، وكيف لا أقول:

أذمُّ إلى هذا الزمان أهَيْلَه فأعلمهم فَدْمٌ وأحْزمُهم وَغْدُ
وأكرمُهم كلبٌ وأبصرُهم عَمٍ وأسْهدُهم فهْدٌ وأشجعُهُم قِرْدُ

قلت:

لقد أحسنتَ أبا الطيب الشتم فلزمت التصغير تحقيراً فقلت: «أهَيله»، كما قُلت في أخرى:

أفي كلّ يوم تحت ضِبْني «شويعرٌ»؟

قال أبو الطيب:

وليس كل التصغير لديّ تحقيراً، ذلك أن بعض ما ورد مصغراً شيء تقتضيه الصنعة، ألا ترى قولي:

أُحادٌ أم سُداسٌ في أحادِ لُيَيْلتنا المنوطة بالتنادي

إن تصغيري «لليلة» في هذا المطلع ليس من باب التحقير، إذ ليس هو نظير التصغير لـ «شاعر» في قولي:

«أفي كل يوم تحت ضبني «شُوَيعرٌ»؟

وقد ذهب إلى هذا اللغويون والنحاة فأشاروا إلى ما صُغِّر للتعظيم والتهويل فقالوا: «دُوَيهية» وكأنهم أرادوا إعظام «الداهوية».

فارسيٌّ له من المجدِ تاجٌ كانَ من جَوْهرٍ على أبرَوازِ

كأنّك صيَّرت هذا الكاتب الذي ليس في العير ولا في النفير «ملِكاً».

فكيف لي أن أدرك قولك:

وإنّما الناسُ بالملوك وما تُفلِحُ عُرْبٌ ملوكها عَجَمُ

كيف جاز هذا؟

قلت:

ما كان لي أن أقبل من صاحبي أبي الطيب الشاعر أن يقول في أبي العشائر الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدويّ:

أرى الناسَ الظلامَ وأنتَ نور وإنّي منهُمُ لإليك عاشِ

ومثل هذا قوله في قصيدة رثى بها أبا شجاع فاتك:

والناس أنزَل في زمانك منزلاً من أن تعايِشَهم وقدرُكَ أرفَعُ

وكيف لا يَشْنَؤُكَ، أبا الطيب، حاسدوك وأنت تقول في الناس:

أنا من جميع الناس أطيبُ منزلاً وأسَرُّ راحلةً وأربَحُ مَتْجَرا

قال أبو الندى:

إي والله، أنت أربَح متجراً، أفيرضيك هذا، أو أنك سعَيتَ إليه؟

أفبعد هذا تريد أن يُحسن الناس إليك، وقد حَقَرْتَهم وسَفَّهْتَهم؟

المجلس الثالث عشر

قال أبو الندى:

إن الكلام على «الناس» في شعر أبي الطيب يقودنا إلى الكلام على الحسد والحسّاد الكاشحين أيضاً، فهل لكما أن نعرض لهذا، وهل يستحق أن يكون ذلك شغل مجلسنا الليلة؟

قلتُ:

كأنكَ سبقتني، أبا الندى، إلى هذا، أليس هذا تتمة للحديث عن الناس؟

قال أبو الطيب:

كأنّكما تجدان أني أكثرت من الكلام على الحسد والحساد، أليس ذلك في الإنسان طبعاً، وهل يخلو مجتمع من حاسد ومحسود؟

وهل كنت بدعاً بين شعراء العربية في هذا؟

قلتُ:

نعم، لا نجد في شعراء العربية شاعراً عرض لهذا على النحو الذي عرضت أنت. لكأنّك جعلت الحياة كالحة الوجه، والعيشَ شَظِفاً بما تحدَّثتَ عن الحسّاد.

وقد راجعت ديوان حبيب بن أوس فلم أجد فيه إلاّ قوله:

وإذا أرادَ اللّهُ نشْرَ فضيلةٍ طُويَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسودِ

قال أبو الندى:

لو أذنتما لي أن أتلو عليكم ما قاله أبو الطيب في الحسد لكان لنا منه طائفة وافية.

قلت:

دونَك ذلك، ولتكن تلاوتك استقراءً لما في الديوان من هذا.

قال أبو الندى:

قال أبو الطيّب في مدحه للحسين بن اسحاق التنوخي، وقد كان قوم قد هَجوه ونحلوا الهجاء إلى أبي الطيّب، فكتب إليه يعاتبه، فكتَبَ أبو الطيب إليه مادحاً، وقد جاء في قصيدته:

تُطيع الحاسدين وأنتَ مرءٌ جُعِلْتُ فِداءَه وهُمُ فدائي

قال أبو الطيب:

وهل في هذا شيء، أليسوا حساداً أرادوا أن يوقعوا بيني وبين الحسين التنوخي؟ وكيف أقول: إن لم أشر إلى حسدهم؟

قلتُ:

إننا لم نعترض على ما كان منك، وأنت صاحب حق تدفع عن نفسك ما أراده قوم سوء حَنَقاً عليكَ ونكاية بك. ولكننا نقول: إن الحَسَد في شعرك أمر يدعونا نحن أهلَ الدرس، إلى أن نقول فيه شيئاً.

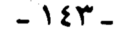
قال أبو الندى:

وجاء في مدح أبي الطيّب لعلي بن ابراهيم التنوخيّ قوله:

وكيفَ لا يُحسَد امرؤ عَلَمٌ له على كل هامةٍ قَدَم

قلت:

نعم، إنّك، أبا الطيب، محسود لأنك ألمعيّ، وصاحب الألمعية غرض للناس ولا سيما أهل المعرفة منهم.





أريـد أن أقول: إن حسـادك هم الشعراء والعلماء وذوو الفضل الذين وصلوا إلى أصحاب الرئاسات والمتقدمين من السادة السراة، والأمراء والملوك.

وقد أشرتَ إلى هذا بقولك هذا.

قال أبو الندى:

وجاء مثل هذا في قصيدتك التي مدحتَ بها علي بن منصور الحاجب، وذلك في قولك:

لبِّيْـكَ غَيْظَ الحـاسـدين الـراتبـا إنّـا لَنخـبُرُ من يَـدَيْـكَ عجـائبـا

قلتُ:

أظن أن في استقرائنا قد جاء شيء غير هذا، فما لك توقَّفت عن تلاوتك؟

قال أبو الندى:

حسبت أنك قد ضَجرتَ من هذه النماذج، وخشيتُ أن يكون أبو محمّد شاعرُنا الكبير قد ضاق صدره.

قال أبو الطيب:

إني لأقبل مشاكستكم هذه لأنها تخرج من أهل علم أتوق إلى أن أستمع إلى حديثهم فيَّ.

قال أبو الندى:

وجاء في قصيدة مدح بها أبو الطيب علي بن محمد بن سيّار بن مكرَّم التميميّ قوله:

ومـا لـيـلٌ بـأطـوَل مـن نهارٍ يَـظَلُّ بلَحْظ حُـسّـادي مـشـوبـا

وجاء في قصيدة أخرى في مدح ممدوحه هذا أيضاً قوله:

ويحـتَقِـرُ الحُـسّـادَ عـن ذكـرِه لهـم كـأنَّهُمُ في الخَلْقِ مـا خُلِقـوا بَعْـدُ



قلتُ:

أتقول، أبا الطيب، إنّي كغيري من الشعراء في هذا الشأن؟

قال أبو الندى:

على رِسلِكما ولا تتعجلا ففي خزانتي مادة أخرى.

لقد كان من هذا قول أبي الطيب في سيف الدولة:

ومـا كَمَدُ الحُسّـاد شيءٌ قصَدتُـهُ   ولكنَّـه من يـزحَم البحـرَ يَغـرَقِ

ومثله في قصيدة فيه مادحاً قوله:

سوى وَجَع الحُسّاد داوِ فإنّه إذا حَلَّ في قَلْبٍ فليس يحولُ

قال أبو الطيب:

وهل بعد هذا كله شيء من هذا؟

قال أبو الندى:

ألا تتذكر داليّتك المحجَّلة تهنِّىء فيها سيف الدولة بعيد الأضحى، لقد قلت فيها:

أزِلْ حَسَـدَ الحُسّـاد عـني بكَبْتِـهم   فـأنتَ الـذي صـيَّرتهم ليَ حُسّـدا

قلت:

وهذا إقرار بأن المتعاصرين من أهل المعرفة قوم متحاسدون.

قال أبو الندى:

لئن صَبَرتُم على هذا العناء لأزيدنَّكم.

قلت:

وكيف لا نصبر، وقد يحلو الجدّ على عسره.

قال أبو الندى:

وفي إحدى قصائده في مدح كافور جاء قوله:

ويـومـاً يغيظ الحـاسـدين وحـالـةً أقيمُ الشقـا فيهـا مَـقـامَ التـنَعُّـمِ

وفي أخرى قالها وقد حدثت وحشة بين الأستاذ كافور والأمير أبي القاسم مدة ثم اصطلحا، جاء قوله في مطلع القصيدة:

حَسَمَ الصُلحُ مـا اشتَهَتْـه الأعـادي وأذاعَـتْـه ألـسُـنُ الحـسّـادِ

وثالثة في مدح كافور جاء قوله:

وأظلَمُ أهلِ الظلمِ من بات حاسداً لَمِنْ بـاتَ في نَـعْـمائـه يَـتَـقَـلَّبُ

قلت:

وما زال في كنانتك بعض هذه السهام...؟

قال أبو الندى:

نعم، ذلك في قصيدته الشاكية حين نالت أبا الطيّب الحُمَّى في مصر، والقصيدة من روائع شاعرنا، وهو قوله:

قـلـيـل عـائـدي سَـقِـمٌ فـؤادي كـثـيرٌ حـاسـدي صَعْبٌ مَـرامي

أظنّني قد أطلتُ عليكم في هذا الذي ذكرتـه، ولكنّي آثرت العـافية، ولديّ منه شيء آخر، وفي الذي أوردته كفاية ومقنع.

قلتُ:

نعم، في الذي ذكرتَه أبا الندى، مقنع، وهو يُشعرنا أنّ أبا الطيب امرؤ مستهدف، وهو على حق في توجيه سهامه إلى أعدائه وجلُّهم من هؤلاء الحساد.

وإلى مجلس قادم.

المجلس الرابع عشر

قال أبو الندى:

لقد كثر ذكر أبي الطيّب في كتب اللغة فكان في شواهد أهل اللغة شيء من شعره. وقد عرفنا ذلك منذ أيام الطلب ووقفنا على شواهد بلاغية من شعره.

لقد استُشهد بشعره على طائفة من أبواب البلاغة كالتشبيه والاستعارة، وفيهما التشبيه بأنواعه، والاستعارة بأنواعها. وأنت تجد شواهد من شعره في الكناية والأنواع البديعية.

وقد استشهدوا على فصاحة الكلمة وجنوحها عن الفصاحة بشعره أيضاً.

وفي شعره نكات لغوية تندرج في باب الأبنية، وأخرى تدخل في تطور الدلالة والاستعمال، ولا تعدم أن تجد لأبي الطيب مواد للنحاة فيها قول.

قلت:

كنت أود أن نختم أحاديثنا هذه عن هذه المشكلات اللغوية.

وأنت واجد، كما أشرت، طائفة من الاستعارات التمثيلية في شعره، وهي تلك الأبيات التي يستشهد بها كقوله:

ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يجدْ مُرّاً به الماء الزلالا

والتشبيه الضمني كقوله:

كرمٌ تبيَّن في صفاتك ماثلاً ويبين عِتْقُ الخيلِ من أصواتها

وكقوله:

فإنْ تَكُ تغلب الغَلْباء عُنْصرَها فإنّ في الخمر معنًى ليس في العنب

قال أبو الطيب:

ربّما ستشيران إلى ما عدّه اللغويون عليّ مندرجاً في مخالفة القياس. وهو من هنا يدخل في باب الخطأ كفكّ الإدغام في «حالِل» الذي أشرتما إليه.

قال أبو الندى:

سنعرض لهذا، وربما وجدنا سبيلاً للذهاب إلى غير ما ذهب إليه أهل اللغة والنحاة.

وسأستقري القصائد وأقف على هذه الفوائد والنكات وسنشترك في المناقشة.

أقول: لقد جاء في مدحه لمحمد بن عبيد الله العلويّ المشطِّب قوله:

يا حاديَيْ عِيسِها وأحسَبُني أوجَدُ مَيْتاً قُبيلَ أفقدُها

وقوله في القصيدة نفسها:

أقَرَّ جِلْدي بها عليَّ فلا أقدِرُ حتى المماتِ أجحَدُها

وقوله من قصيدة مدح بها المغيث بن عليّ بن بشر العجلي:

وكلّما لقيَ الدينارُ صاحبَه في ملكهِ افترَقا من قبلِ يصطحبا

قلت:

كأنك أردت أن تقول: إن أبا الطيّب حذف «أن» الناصبة قبل الكلمتين الأخيرتين في البيتين الأول والثاني ليقيم الوزن ورفع الفعلين ليتفقا مع القافية وهي الدال المضمومة، ومطلع القصيدة الأولى:

أهلاً بدارٍ سباكَ أغيدُها أبعَدُ ما بانَ عنكَ خُرَّدُها

وأما البيت الثالث، فقد حذف الشاعر «أن» وأبقى الفعل منصوباً،



وكانت علامة النصب حذف النون، فقوله:

«يصطحبا» تقديرها: «أن يصطحبا» والحذف يقيم الوزن، وهو أمر متطلّب.

قال أبو الطيب:

ألا يجوز لي ذلك، وفي العربية نظائر ذلك، لقد جاء في مطوّلة طرفة بن العبد قوله:

ألا أيُّهذا اللائمي أحضُرُ الوَغَى وأن أشهَدَ اللذّاتِ هل أنتَ مُخلدي

والتقدير: أن أحضُر.

ولي أن أقول في المثل: «تسمعُ بالُمعَيْديّ خير من أن تراه»: إن الأصل ينبغي أن يكون، أن تسمَعَ، ولكن المثل رُوي على الحذف.

قال أبو الندى:

ومما ورد في كتب البلاغة في باب فصاحة الكلمة تكرار بعض الأصوات في كلمات البيت فتصبح ثقيلة فتفقد بيانها كقول أبي الطيّب:

وقَلْقَلْت بالهمِّ الذي قَلْقَلَ الحَشَا قَلاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ

قال أبو الطيب:

وأي شيء فيه، وقد أباحه الشعراء الجاهليون، ألم يقل الأعشى:

وقد غَدَوتُ إلى الحانوت يَتْبَعُني شَاوٍ مِشَلٌّ شَلولٌ شُلْشُلٌ شَوِل

قلتُ:

أما سمعت أن أهل العلم قد قالوا للأعشى في «عكاظ»: لقد شَلْشَلْتَ اللفظَ وأجَدْتَ المعنى.

ولك، أبا الطيّب، مثل بيتك هذا في قصيدتك التي مدحتَ بها أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضي الأنطاكيّ، وهو قولك:

ولا الضَّعْفَ حتى يتبَعَ الضَّعْفَ ضِعفُه ولا ضِعْفَ ضِعْفِ الضَّعْفِ بل مثله ألفُ



قال أبو الندى:

ومن الصنعة التي هي تصنُّع قولك:

غُصنٌ على نَقَوَيْ فلاة نابتٌ شَمس النهار تُقِلُّ ليلاً مُظلِما

قال أبو الطيِّب:

أليس لهذا نظائر لا تعدّ ولا تُحصَى في شعر العَرَب؟

قلت:

نعم، في أدب العربية نظائر هذا ولكنها معدودة ممّا يدخل في التصنع، وليس التصنع طبعاً في الشاعر.

قال أبو الندى:

وجاء في مطلع قصيدتك في مدح محمد بن زُرَيق الطرسوسي قولك:

هذي بَرَزْتِ لنا فهجت رَسيسا ثم انثنَيتِ وما شَفَيت نَسيسا

ونداء «هذي» اسمَ إشارة «مما لم يحظ بقبول أهل العلم بالشعر ومثل هذا قولك:

«أفي كل يومٍ تحت ضِبْني شُوَيعِرُ»

فطلب التحقير يوجب التصغير.

قلتُ:

وقد تضطرك القافية إلى مخالفة القياس فتذهب إلى ما يشبه كلام العامة، ألم تقل في مدح محمد بن زريق الطرسوسي:

إنْ حَلَّ فارقَت الخزائن مالَه أو سارَ فارَقَتِ الجسومُ الروسا

والصواب: الرؤوسا، ولكنها القافية ذات سلطان.

قال أبو الندى:

وقلت في مدح علي بن ابراهيم التنوخي:

أُسائلُها عن المتديِّريها فلا تَدري ولا تُذري دموعا

و«المتديِّر» الذي يتخذ المكان داراً.

لقد ابتأس النقاد من أهل العلم مجيء هذه الصياغة للكلمة جمعاً مضافاً، وعدُّوها مما يقدح في جمال الصنعة.

قال أبو الطيب:

كأنكم أهل اللغة والنقد أصحاب عطور وبقول تزنون بالميزان، ولو عانيتم صنعة الشعر لما ذهبتم إلى هذا.

قال أبو الندى:

إنك جريء تستمد جرأتك من فنِّك الأصيل وعلمك بالصنعة وحذقك للعربية فتجيز لنفسك استعمال المصطلح النحوي اللغوي وتشير فيه إلى نكتة في العربية، ومن هذا قولك في قصيدة مدحتَ بها أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الخطيب الخصيبيّ:

حولي بكلّ مكانٍ منهُمُ خِلَقٌ تخطي إذا جئت في استفهامها بمَنِ

وموضع النكتة أن الاستفهام بـ «مَن» للعاقل، ولما أراد تحقير تلك «الخِلَق» أومأ أن الاستفهام ينبغي أن يكون عنهم بـ «ما» وهي لغير العاقل، فاستعمال «من» معهم من الخطأ.

أشهد إنك لبارع تعرف لوازم صنعتك.

قلتُ:

ومن جرأتِك استعمال صفات متعدّدة تستهلك جميع البيت، وهو في القصيدة السابقة في مدح الخصيبيّ في قولك:

العارضُ الهَتِنِ ابن العارض الهَتِنِ ابن العارضِ الهَتِنِ ابن العارضِ الهَتِنِ

وهذا يكاد يكون كقولك في قصيدة في مدح عبد الواحد بن العباس بن أبي الاصبع الكاتب:

الحازمَ اليَقِظَ الأغرَّ العالِمَ الفَطِنَ الألَدَّ الأريَحيَّ الأروعا

ومثل قولك الذي أردت إظهار براعتك وقد سُئلت بيتاً يتضمن ما يمكن من الحروف، وليتك لم تفعل مثل هذه الألاعيب:

عِشْ ابقَ اسْمُ سُدْ جُدْ قَدْ مُرِ انْهَ اسْرُ فُهْ تُسَلْ
غِظْ ارْمِ صِبِ احْمِ اغْزُ اسْبِ رُعْ زَعْ دُلَّ اثْنِ نَلْ

أهذه جرأة، أم سخرية بالقارىء، وكيف لا يقول فيك النقاد ما لا يُرضيك؟

ومثله قولك من قصيدة في مدح سيف الدولة:

أقِلْ أنِلْ أقطعِ احمِلْ علّ سلّ أعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تفضَّلْ أدْنِ سُرَّ صِلِ

قال أبو الندى:

وجئت بنكات من العربية تدل على مبلغ زادك منها في قصيدتك التي مدحت القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكي في قولك:

ولَدَيْه مِلْعِقْيانِ والأدب المُفا دِ مِلْحَياةِ ومِلْمَماتِ مناهلُ

والنكتة حذف نون «مِنْ» الجارة وهو أسلوب ورد في أدب المتقدمين، قال الحسن بن هاني:

ولم أدر مِلأشياءِ لا أدر قولها وقد قَرَّبَت نِضْوي أمِصْرَ تُريدُ

وجاء في قصيدتك هذه في الأنطاكي قولك:

يا أفخَرْ فإنّ الناس فيك ثلاثةٌ مستعظمٌ أو حاسِدٌ أو جاهلُ

والنكتة هي حذف المنادى ومباشرة «يا» للفعل.

قال أبو الطيب:

وأي شيء في هذا ألم يقُل غيلان ذو الرمة:

ألا يا اسْلَمي يا دارَ مَيَّ على البِلَى ولا زالَ مُنهَلاً بجرْعائك القَطْرُ



قلتُ:

وهل من حاجة للغريب النافر في قولك من قصيدة في سيف الدولة:

مُبارَك الاسمِ أغَرُّ اللَّقَبْ   كريمُ الجِرِشَّى شريفُ النَسَبْ

أردتَ بـ «الجِرِشَّى» النفس، هلا قلت «النفس» بضرب من الصنعة للحفاظ على الوزن.

أضرورة تلك أم زهو وجرأة؟ لتقول إنّي أعرف الغريب والنوادر!!

قال أبو الندى:

ومن النكات النحوية ورد في شعرك، أبا الطيب، ما استشهدَ به النحاة في مسألة «لات» النافية الملحقة «بليس» وعملها خاص، وهو أن تدخل على اسمَي زمان يحذف أحدهما والغالب الاسم، أما قولك فزدتَ عليهم وحذفت الاسم والخبر وأبقيت مضافاً إليه، وهو:

لقد تَصَبَّرتَ حتى لاتَ مُصْطَبَرٍ   فالآنَ أقحَمُ حتى لات مُقْتَحَمِ

قلت:

ولم أجد استعمالاً لـ «أنّى» الدالة على المكان كما وردت في شعرك، أبا الطيّب في مطلع قصيدتك في مدح المغيث العجلي:

دمع جَرَى فقَضَى في الربع ما وَجَبا   لأهلِهِ وشَفَى أنّى ولا كَرَبا

قال أبو الطيب:

وهل كان ذلك تجاوزاً أو خَطَأً؟

قلت:

أنّى يكون الخطأ جارياً في صنعتك؟

ولكني لا أقبل منك جملة أبيات ذهبت في الإغراق أو المبالغة أيّ مذهب، ومن ذلك قولك في قصيدة مدحتَ بها بدر بن عمّار:



وأعجَبُ منـك كيف قـدرت تَنْشـا وقـد أُعـطيتَ في المهـد الكـمالا

غُفرانك اللهم ربّنا تُؤتي حكمتك الأنبياء فيكون منك أن يكلّم عيسى الناسَ وهو في المهد صبياً، فأمّا أن تجعل بدر بن عمّار على شاكلته فما أنزلتَ به من سلطان.

ثم أريد أن أشير إلى تسهيل الهمز في قولك «تَنْشا» ولك في هذا رخصة، فقد جاء الكثير من هذا في العربية.

قال أبو الندى:

ومن جرأتك وثقتك بنفسك أنك تستعمل أبنيةً لم نجدها في العربية، وكأنك تقول، أنا من صنّاع هذه اللغة، وكيف يأبَى عليٌّ أهل اللسَن ذلك، وهم لا يدركون منها مثل الذي اجتمع لديّ فقلتَ في مدح أبي سهل سعيد بن عبيدالله الأنطاكي في قصيدة مطلعها:

قـد علَّم البـينُ منّـا البـينَ أجفـانـا ....
بـالـواخـدات وحـاديهـا وبي قَمَـرٌ يـظَلُّ من وَخْدها في الخِدرِ خَشيـانا

فقولك «خشيان» بناء على فَعلان. لا يقر به إلا من حكمه سلطان القافية، ومثله أيضاً:

لا أشـرَئِبُّ إلى مـا لم يفُتْ طَمَعـاً ولا أبيت عـلى مـا فـاتَ حَسْرانـا

و«حَسْران» مثل خشيان.

قال أبو الطيب:

وهذا وغيره مما أسعى إلى توليده وأقذف به في العربية وبحرُها عُباب عَيْلَم يستوعب الفرائد والغرائب.

قلتُ:

وقد تبلو التعقيد في البناء فتقتحمه فيكون من لوازمك، ويمرّ به الدارسون فلا يبتئسون وهذا ما كان منه في التائية في مدح أبي أيّوب أحمد بن عمران:

لا نعذُل المَرَضَ الذي بك شائقٌ   أنتَ الرجال وشائق عِلاّتِها

أي أنك شوَّقتَ الرجال إليك وشوَّقتَ العِلاّت أيضاً، فكيف نصير إلى هذا من ظاهر البيت؟

قال أبو الندى:

كأننا لم نستوف الجانب اللغوي ولدينا منه أشتات نافعة. ألم تتكلم شيخي في قول أبي الطيب أيام الدرس:

«لأنتَ أسودُ في عيني من الظُلَمِ»

قلت:

بلى، وأذكر أني كنت أرد على القائلين في مسألة صوغ «أفعل» التفضيل من الألوان، وأن أهل العلم اختلفوا فيها.

قال أبو الطيب:

لقد جَرَبت في صياغتي على ما أجازه الكوفيون، وما سمع مما استشهدوا به وذلك في قول الراجز:

جاريةٌ في درعها الفَضفاضِ   أبيضُ من أُختِ بني إباضِ

قلت:

ما أسعدني بك، أبا الطيب، الليلةَ، لقد سمعت اسم الكوفيين وأصحابنا الكوفيين على لسانك، ولم أعرف أنك على صلة بهم، وأن منهم من تخصه بأية علاقة.

لقد عرفت فيما عرفت أن لك مع ابن خالويه، وهو من أصحابنا الكوفيين، قضية، وكلاكما خصم لصاحبه، ألم تذكر ما كان لكما في مجلس سيف الدولة، وأنك قد سعيت إلى الإزراء بخصمك، لقد جهَّلته فقلت لتُسمع ممدوحك سيف الدولة: إن ابن خالويه لا يعرف أن «السيف» اسم ليس غير، وما خلا ذلك من أسمائه فنعوت وصفات وشهرة أنزلت منزلة الأسماء.



وعرفت أن صاحبك الأثير بمودتك أبو الفتح عثمان بن جني، الذي كان له عناية بشعرك، وهو صاحب «النسر» شرحاً لديوانك، وله مصنفات أخرى تتصل بشعرك.

فكيف كنت اليوم كوفياً، وما رأيتك إلا بعيداً عن هذه النسبة حتى ذهب قوم إلى أنك من شعراء بلاد الشام...؟

قال أبو الطيب:

على رسلك، كيف تقول هذا، وقد سمعت منك منذ ليال أنك قد أشرت إلى أصولي «الكوفية» في قولي:

أمُنْسِيَّ السَكونَ وحَضْرَموتاً ووالدتي وكندةَ والسَّبيعا

قلت:

ليس هذا بشيء بالإضافة إلى «شاميّتك» التي وقفنا عليها في عامة شعرك.

قال أبو الندى:

هوناً، هوناً، لقد ذهبنا في لجاجة ليس لنا فيها أيةُ فائدة، وقد صرفنا عما اعتزمت أن أمضي فيه من مكانة شعر أبي محسّد لدى أهل اللسن والبلاغة...

قلت:

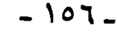
وهذه فوائد جمّة فيها الكثير مما سيطرب له شاعرنا، على أن فيها مما يبتئس منه، ولكنّي ذكرت حين كنا نتحدّث عن صوغه «أفعل» من الألوان، وهي مسألة خلافية شايع فيها الكوفيين على ما زعم أهل الدرس لدفع الخطأ عن صاحبهم...

أقول: ذكرت قول أبي الطيب في أحد ممدوحيه:

أطعناكَ طَوْعَ الدهر يا ابن ابنِ يوسُفٍ بشهدتنا والحاسدو لكَ بالرغمِ

فكيف جاز لك، أبا الطيب، أن تقول وفاءً بالوزن: «والحاسدو». وليس من مُوجب؟

أحملتَها على قول الشاعر القديم:





«أبني كُلَيبٍ إنّ عَمَّيَّ اللذا»

لا، تلك لغة قديمة في حذف نون «اللذان».

قال أبو الطيب:

أليس لك أن تتجاوز هذه «النكات» وأنت تعرف من أنا في فرائدك اللغوية....

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمَعَتْ كلماتي مَن به صَمَمُ

قال أبو الندى:

وأنا أرى ما تراه، ولنتجاوز هذا، وها أنذا أسمعكما ما ثقفته أيام الطلب في دروس البلاغة مما جاء في شعر شاعرنا فأقول ولا أشير إلى أبواب البلاغة التي جاءت فيها أبيات أبي الطيب شواهد:

إن السيوف مع الذين قلوبهم كقلوبهِنّ إذا التقى الجمعانِ
تلقَى الحسامَ على جَراءة حدِّه مثلَ الجبان بكف كلِّ جبانِ

وقال:

ولا كُتْبَ إلاّ المشرفيَّةَ عنده ولا رُسُلَ إلاّ الخميسُ العَرَمْرَمُ

وقال:

إذا الدولة استكْفَتْ به في مُلِمَّةٍ كفاها فكانَ السيفَ والكفَّ والقَلْبا

ولله أبوك، أبا الطيب، كم بلغ منك الزهو بشعرك حتى قلت:

إنّ هذا الشِّعر في الشِّعر مَلَكْ سارَ فهو الشمس والدنيا فلك

قلتُ:

وحق له أن يزهى مفتخراً فيقول:

أنامُ ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخَلْقُ جَرّاها ويختصِمُ

قال أبو الندى:

وخير لنا أن نمضي في هذا الذي بدأنا به فأتلو قوله:

فلو خُلِقَ الناس من دهرِهمْ ... لكانوا الظلامَ وكنتَ النهارا

وقوله في مدح كافور:

وأمضَى سلاحٍ قلَّدَ المرءُ نفسَه ... رجاءُ أبي المِسْكِ الكريمِ وقصْدِهِ

وقوله في سيف الدولة:

يهزُّ الجيش حولكَ جانبَيْه ... كما نَفَضَتْ جَناحَيْها العُقابُ

قال أبو الطيب:

ما تقول في حسن التشبيه هذا، أسبَقني إلى مثله من تشيد بذكرهم من أهل الوصف كابن الروميّ وأبي تمام؟

قلت:

كنت أريد أن ألتمس أبا الندى وقفة قصيرة لأقول شيئاً في موقفك من سيف الدولة وموقفك من كافور كيف كان ذلك؟ وكيف انتهيت من كلٍّ منهما، وكيف تستشعر رضاك وسُخطك. وكنت أود أن تقف معي على بيتك الأول وأطلب إليك بعض الندم على ما فرَّطتَ في حق الناس، حين نسبتَهم إلى الظلام لتستلَّ ممدوحك من بينهم لتنسبه إلى النور؟؟

كنت أريد أن أشير إلى هذا، ولكني آثرتُ العافية لأحتفظ برضاك ومودّتك.

قال أبو الندى:

أبي أن أمضي في تلاوتي فأُسمعُكُما بديع صنعة أو تصنّع ما أراكما إلا تقولان فيه بعض القول، وهو في البيتين:

أغارُ من الزجاجة وهي تجري ... على شفة الأمير أبي الحُسَيْنِ

كأنّ بياضَها والراح فيها ... بياضُ محدِّقٍ بسَوادِ عَيْنِ

قلتُ:





كفَيتَني فيما قلت في قولك الموجز، وهو ما أردت.

قال أبو الطيّب:

لقد ذكَّرتُماني ما قاله أبو الفتح ابن جني وقد قرأ عليّ قولي:

وما طَرَبي لمَّا رأيتُكَ بِدعةً ... لقد كنتُ أرجو أن أراكَ فأطرَبُ

قال: ما زِدْتَ على أن جَعَلت الرجل قِرداً فضحكتُ.

قلتُ:

وكيف تريد من أهل العلم باللسن والبيان أن يُقرّوك على شيءٍ لا يرضونه مما يخرج على سماحة العربية، وكيف لهم أن يسكتوا على التعقيد في البناء تقديماً وتأخيراً في قولك:

أنّى يكون أبا البريّةِ آدَمٌ ... وأبوكَ والثقلان أنتَ محمدُ

وأنت تريد: كيف يكون آدم أبا البرية، وأبوك محمد، وأنت الثقلان؟

تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

قال أبو الندى:

كأننا أطلنا مقامنا الليلة فهل لنا أن ننصرف لنأتي في مجلس قادم؟

المجلس الخامس عشر

قال أبو الندى:

لقد شغلتنا بُنَيّات الطريق عما كنا فيه من تلاوة فرائد أبي محمّد التي حفلت بها مصادر البلاغة، فهل لنا أن نمضي في سبيلنا؟

قلت:

وهل لنا شيء غير هذا، فعلى رسلك أبا الندى وهَيِّئْ لنا من أمرنا رشداً.

قال أبو الندى:

مما استظهرناه أيام الطلب قول أبي محمّد:

من يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليه ما لجُرحٍ بميِّتٍ إيلامُ

ولكني لأضيق ذرعاً بإدراج أهل البيان لهذا البيت في باب «التشبيه الضمني». وكأني بهذا المصطلح قد جرّد البيت مما فيه من خفة ورشاقة وجمال.

قلتُ:

أحسنتَ أبا الندى، لقد شُغِلت مثلك بهذا الذي دُعِي «التشبيه الضمني»، وقد كنت حفيّاً بقول أبي تمّام:

لا تُنكري عَطَلَ الكريم من الغِنَى فالسيل حَرْب للمكان العالي

قال أبو الطيب:

كأنك ترُدّ على أبي الندى ما ذَهَبَ إليه من إحساني فيما أنشد، وكأنك تقول أن بيت أبي تمام قد ظهر على بيتي المتقدّم.

وأين أبو تمام من هذا اللون الذي أدرجتموه في باب ما سُمِّي بـ «التشبيه الضمني»؟

قال أبو الندى:

ما أظن أن شيخي قد ذهب إلى ما تقول، وقد ذهبت بعيداً في ظنّك، وكأنّك ترُدّ على بعض القائلين بسبق أبي تمام في هذه الفنون.

لك أن تُزْهَى، أبا الطيّب، بفرائدك التي أصبحت دلائل ناطقة يرويها صاحبك وخصمك، ومنها:

وأصبح شعري منهما في مكانه ... وفي عُنُق الحسناء يُستَحسَن العقْدُ

وقولك في تائية عامرة:

كَرَمٌ تبيَّنَ في صِفاتِك ماثلاً ... ويَبينُ عِتْقُ الخيل من أصواتِها

قلت:

وإني لأود أن أؤكد أني شديد الاحتفاء بهذه الفرائد، وكيف أنسى قول أبي الطيّب في هذا الذي يشغلنا الليلة ومنه:

لا يُعجِبَنَّ مَضيماً حُسْنُ بزّته ... وهل يروق دفيناً جودة الكَفَنِ

وأين نحن من قوله:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكنْ معدِنُ الذَهَبِ الرَّغامُ

وقوله:

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهم ... فإنّ المِسْكَ بعض دم الغزالِ

واحتفائي بهذه اللآلئ لا يمنعني من أن أشير إلى ما قصَّرت فيه، أبا الطيب، فكيف سخرت من قُرّائك فقلت:

وقَلْقَلْتُ بالهمِّ الذي قَلْقَلَ الحَشَا ... قَلاقِلُ هَمٍّ كُلُّهُنَّ قلاقِلُ

قال أبو الطيب:

لم يزل في نفسك شيء من هذه التي عبتني بها، وكأنّ إحساني الجم لم

يبعدك عما أنت فيه مما جعلته من عيوبي.

قال أبو الندى:

وهل خلا أحد من العيب، وجَلّ مَن لا عيب فيه، فلا تبتئس، أبا الطيب، وأنت الشاعر الشاعر ألاّ أكون معك في قولك الذي غلبت صنعة ما أراها صنعتك الحاذقة التي عُرفتَ بها، وهو:

نَشرَتْ ثلاثَ ذوائبٍ من شعرها   في ليلة فأَرَتْ ليالِيَ أربَعا
واستقبَلَتْ قَمَرَ السماء بوجهها   فأرَتْنيَ القَمَرَيْنِ في وقتٍ معا

قلتُ:

ما تركتَ لي، أبا الندى، وجهاً للقول، فقد أوصدت كل باب وقد أحسنت الجواب.

وكيف لي أن أجعل الاستعارة البارعة في قول أبي الطيّب:

فلم أرَ قبلي مَن مَشى البحرُ نحوَه   ولا رجلاً قامت تعانقُه الأُسْدُ

مثل استعارته التي خانها التوفيق في قوله:

ولمّا قلّت الإبِلُ امتطَيْنا   إلى ابنِ أبي سليمانَ القلوبا

وقوله الذي أثقلته صنعة متكلفة في وصف القلم:

يَمجُّ ظلاماً في نهارٍ لسانُهُ   ويفهَمُ عمّن قال ما ليس يَسمَعُ

وأين هذا من قوله في وصف الأسد:

وَرْدٌ إذا وَرَد البحيرةَ شارباً   وَرَدَ الفراتَ زئيرُهُ والنيلا

قال أبو الندى:

إن هذه الأشتات التي نسبتها إلى التصنع والتي ابتعدت عن صفاء الشاعرية لدى أبي محمّد قليلة بالإضافة إلى الجم الغفير من كلمه النوابغ، فإذا قال:

حَمَلت إليه من لساني حديقةً   سَقاها الحِجَى سَقْيَ الرياضِ السحائبِ



فهل يكون في ذلك إبعاد لحسناته وهي كثيرة؟

قال أبو الطيب:

أين أنتما عن قولي:

وَمَــن يَــكُ ذا فَــمٍ مُــرٍّ مَــريضٍ يَجِـدْ مُـرّاً بـه المـاءَ الـزُّلالا

وقولي:

غـاضَ الـوفـاء فـما تلقـاه في عِـدَةٍ وأعـوَزَ الصِّـدْقُ في الأخبـار والقَسَمِ

وقولي:

اليـكِ فـإنّي لسـتُ مِمَّن إذا اتَّـقَى عِضاضَ الأفاعي نامَ فوق العقـارِبِ

وقولي:

فـإنْ تَـزعُم الأمـلاكُ أنّـك منهم فخاراً فإنّ الشمس بعض الكـواكبِ

وقولي:

خُـذْ ما تـراه ودَعْ شيئاً سمِعتَ بـه في طلعة البدر ما يُغنيك عن زُحَـلِ

وقولي:

لـعـل عتبَـكَ محمـودٌ عـواقبُـهُ وربَّما صحَّتِ الأجسـامُ بـالعِلَلِ

وقولي:

ومن يجعل الضِرغامَ للصيـد بـازَهُ تَـصَيَّـدهُ الضِرْغـام فيـما تَصَيَّـدا

وقولي:

وفي تَعَبٍ من يحسُدُ الشمسَ ضوءَها ويجهَـدُ أن يـأتي لهـا بضريـبِ

وقولي:

مـا الـذي عـنـده تُـدارُ المنـايـا كـالـذي عـنـده تـدار الشَمـولُ

وقولي:

رمـاني الـدهـرُ بـالأرزاء حـتى فـؤادي في غِـشـاءٍ مـن نِـبـالِ
فـصِـرتُ إذا أصـابـتـني سـهـامٌ تكسَّرَت النصـال عـلى النصـالِ

وقولي:

والهمُّ يخترمُ الجسيمَ نحافةً ويشيب ناصيةَ الصبيِّ ويُهرِمُ

وقولي:

رَمَى واتَّقى رَمْيِي ومن دون ما اتَّقى هـوًى كاسرٌ كفّي وقوسي ومِعصَمي
إذا ساء فعلُ المرء ساءت ظنونُه وصـدَّق مـا يعتـادُهُ من تَـوَهُّمِ

وقولي:

لا تَلْقَ دهـرَكَ إلاّ غـير مكتَـرثٍ مـا دامَ يصحَبُ فيه روحَكَ البَدَنُ

قلتُ:

بَخٍ بَخٍ، أراك أجدْت فاستَمتَعْتَ فأطلت، ولست بقاطع عليك هذه المتعة، وما أراني إلا صاحبك وصفيّك، وأذكر أني أمليت على أبي الندى أيام الطلب جملة من هذه الفرائد الحسان ما يؤلف مصنّفاً.

قال أبو الندى:

نعم، إنّي لأذكر ذلك، وما زلت أجدني أردد وأنا لا أقصد قولك أبي محسّد:

أقَـمـتُ بـأرضِ مِصْرَ فـلا ورائي تَخُـبُّ بيَ الـركـابُ ولا أمـامـي
ومَـلَّنيَ الـفـراش وكـان جَـنْـبـي يَمَـلُّ لـقـاءَه في كـلِّ عـامِ

وقولك:

إنّي أصاحِبُ حِلْمي وهو بي كَرَمٌ ولا أصاحِبُ حِلْمي وهو بي جُبُنُ
ولا أقـيـمُ عـلى مـالٍ أذِلُّ بـه ولا ألَـذُّ بمـا عِـرْضي بـه دَرِنُ

قلت:

ومما استظهرتُه في صِباي، وأنا أستقبل الفتوّة والشباب قول أبي الطيّب:

على قدْر أهلِ العَزْمِ تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكِرام المكارِمُ
وتكبُرُ في عين الصغير صِغارُها ... وتصغُر في عين العظيم العظائم

وحَقٌّ لك، أبا الطيّب، أن تمدح نفسك مزهواً فتقول:

ما أبعَدَ العيبَ والنقصانَ عن شَرَفي ... أنا الثريّا وذان الشيب والهَرَمُ

لأنك جئت بما لم يستطع غيرك ممن تقدّموك أن يأتي به كثرة وإجادة وصف وإرسال فائدة وقولٍ مأثور، ورشيق كلم أصبح على كل لسان كأنه الحكمة التي لا تتأتّى إلا لذوي العقول والألباب.

قال أبو الندى:

ومن هذا الذي بسطت القول فيه قوله:

لعلَّ عتبَك محمودٌ عواقبُهُ ... وربَّما صحَّت الأجسامُ بالعِلَلِ

وقوله:

ومكايدُ السُفهاءِ واقعةٌ بهم ... وعداوة الشعراء بئسَ المُقْتَنَى

وقوله:

لا تحسَبِ المجدَ تمْراً أنت آكِلُهُ ... لن تبلُغَ المجدَ حتى تلعَقَ الصَّبِرا

وقوله:

فلا تَنَلْكَ الليالي إنَّ أيديَها ... إذا ضَرَبْنَ كسَرْن النَّبْعَ بالغَرَبِ

وقوله:

ولستُ أبالي بعد إدراكيَ العُلا ... أكان تُراثاً ما تناولْتُ أم كَسْبا

وقوله:

وهل تغني الرسائل في عدوٍّ ... إذا ما لم يكُنَّ ظُباً رِقاقا

قلت:

إن هذا الذي سمعناه من أبي الطيّب ومنك وغيره أكثر من ذلك، مع براعة في الاستهلال في كثير من مطالع قصائده، وقد أشرنا إلى ذلك في أثناء مجالسنا، شعر شاعر اكتملت أدواته وأوتي من خفة الطبع ولطف الصنعة ما لم يؤت غيره من الأفذاذ.

أقول: إذا كان له كل ذلك فكيف قال في مطلع قصيدة له معروفة ذكرها النقّاد على أنها مطلع غير موفق، وهو:

أوهِ بديلٌ من قولتي واها ....

قال أبو الندى:

لديّ من هذه الفرائد الكثير الكثير مما لا أقوى على تلاوته، ونحن نذهب يمنة ويسرة ونجور عن السبيل، فهل لي أن أعود إلى تلاوتي فأُسمعكما مما أحفظه؟ ومنه:

لا يُدرِكُ المجدَ إلا سيِّدٌ فطِنٌ لِما يَشُقُّ على الساداتِ فَعّالُ
لا وارثٌ جَهِلتْ يُمناهُ ما وَهَبَتْ ولا كَسوبٌ بغيرِ السيفِ سئّالُ

وقوله:

ولِلسِّرِّ منّي مَوضِعٌ لا ينالُهُ نَديمٌ ولا يُفضي إليه شَرابُ

وقوله:

أَتَى الزمانَ بَنوهُ في شبيبتِهِ فَسَرَّهُمْ وأتيناهُ على الهَرَمِ

ولا أريد أن أحبسكما طويلاً فقد امتد بنا المجلس وتشعَّبت بنا المسالك وأتينا على الفرائد الحسان.

قال أبو الطيب:

وما أراني قد ابتأست بمجلسنا هذا، وأشعر أني أفدت من علمكما.



قلت:

ولي أن أختم هذه السلسلة بقولك أبي الطيب:

وما الدهرُ إلاّ من رُواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

وكأنك أدركت هذا فرأيت بعينك كيف كان لديوانك أن يكون مظنّة درس، وقد أقبل عليه أهل العلم وطلاب الدرس في كل مكان من دنيانا.

فقرّ عيناً بما أدركته وكسبته، ولا تبتئس في قولك:

وأيّاً شِئتِ يا طُرُقي فكوني أذاةً أو نجاةً أو هلاكا



المحتوى